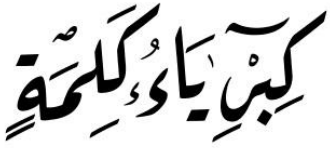

كبرياء كلمة

كبرياء كلمة: مجموعة قصصية
الكاتبتان: سارة محمد عبدالفضيل و نورا الزهيري
تصميم الغلاف: عمرو أنور
تدقيق لغوي وإخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 7533 / 2018
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 028 - 7

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

كِبْرِيَاءُ كَلِمَةٍ

الْكَاتِبَتَانِ

سَارَةُ مُحَمَّدٍ عَبْدُ الفَضِيلِ وَ نُورُا الزَّهِيرِي

مقدمة

حينما تعتصر الآلام ما تبقى من قوتنا وتكسو

قلوبنا دقات الصمود

تستعيد عقولنا ما تبقى لها من عزةٍ

فتشتعل

ملحمة الكبرياء

سارة محمد عبد الفضيل

إهداء

إلى أمي وأبي

يا من علمتموني الحلم، وكيف أحيا بالعلم

دمتم لي سندًا وأمانًا

إلى زوجي

ملهمي ومن نبض قلبي له حبًّا

إلى كل أستاذ علمني

كيف أمضي في طريق الحلم

رياح أكلتها النيران

كنت أُكمل طريقي إلى ذلك الكهف الدافئ الذي يبعد كثيرًا عني بين تلك الرمال التي نبضت قدمي من اشتعالها، وصرت لا أرى أمامي من حُرقة عيني التي صار لونها كالدماء من شدة قسوة الشمس عليها.

ولكني سمعت صوتًا يبكي بحرقة شديدة وحينها اطمأن قلبي أني لم أترك هنا وحيدة في تلك الصحراء الموحشة، ولكن لا زلت أُفكر من أين يأتي الصوت وما سبب ذلك النحيب؟

تركت ما جئت لأجله وبدأت أتتبع مصدر الصوت إلى أن عرفت مصدر اتجاهه وسرت من أجل الوصول إلى صاحبه، ولكنني بعد أن سِرت نحو ذلك الصوت وجدت أنه يأتي من تلك الهضبة فمن سأجد هناك؟

أكملت طريقي نحو الهضبة ورفعت وجهي لأرى من يبكي بحرقة هكذا ربما يمكنني أن أُهون عليه، ولكنني صُعِقت حينما رأيت تلك الرياح التي ركعت تبكي بين يدي السماء..

حينما رأتني أتجه نحوها حاولت أن تُخفي تلك الدموع التي أغرقت الهضبة بالكامل، ونظرت إليَّ بنظرات متسائلة، من أنت وكيف وصلت إلى هنا؟!

ولكنها سرعان ما اقتربت مني وحاولت أن تقصَّ عليَّ سبب حزنها دون أن أطلب منها ذلك أو حتى أتفوه بكلمةٍ معها.

وبدأت حديثها قائلة: أرأيت ماذا حل بأشجاري؟ لم يعد لدي ما يطعمني، وقد صرت عجوزًا كما ترى، كيف يمكنني أن أزرعها مرة أخرى، اندهشت من كلماتها ولكن عليَّ أن أخفف عنها.

فقلت لها لا عليك عزيزتي، سأتولى أنا تلك المهمة، ولكنها رفضت في البداية ما هو ذنبك أيها المسكين أن تعطل حياتك لأجلي، لا تقلقي سأبقى هنا حتى أتذوق من الشجرة ثمارها وأعود لأكمل طريقي، فابتسمت في فرحة، وبدأت تشكرني على قيامي بتلك المهمة.

ولأن الوقت ما زال مبكرًا على الاستراحة فقررت أن أبدأ العمل على الفور، وبالفعل بدأت بالبحث عن مكان لجلب المياه وساعدتني هي في الحصول على بذور الشجرة وكان الأمر متيسرًا إلى أبعد حد.

مرت بنا الأيام سويًّا ونحن نتقاسم الطعام والكلام وحتى النوم جنبًا إلى جنب، لم أرَ منها سوى كل فعلٍ حسن، ولكن بعدما بدأت في الحديث عن موضوعات مختلفة وشعرت هي بأني على دراية جيدة في علومٍ مختلفة، وأن أفكاري تكون الأفضل دائمًا بدأت أفعالها تتغير واحدة تلو الأخرى، حتى حان وقت جمع الثمار.

وكنت أسهر بجانب الشجرة لأرعاها وأسقيها وأتحدث إليها، وهي تنظر إليَّ

نظرة لم أعْتَدْهَا منها نظرة تحمل معانٍ كثيرة وتساؤلات لماذا أنت من تعتني بها؟! حتى قالتها لي في إحدى الليالي أنت تعمل هنا وستأخذ مقابل ما عملت من الثمار.

وفي إحدى الأيام وبعد بزوغ الفجر، نظرت إلى الشجرة ووجدت أن ثمار التفاح قد نضجت وتنتظر من يتذوقها، فقطفت تفاحة لونها أحمر لامع وقضمت منها فكانت لذيذة المذاق وهي تنظر إلي من بعيد لم تأتِ لتشاركني تلك الفرحة أو كي تتذوق معي ثمارها الناضجة.

ولم أنتبه لما تفعل لأني سعيدٌ بما حققت فقد حان وقت تكليل جهودي التي مضت عليها أيام طوال، وظللت أحتفل طوال اليوم بذلك الإنجاز حتى حان وقت النوم وهي لم تقترب حتى للحديث معي.

وأنا أنام وأحلم بشجرة التفاح وأتمنى أن تصير الشجرة اثنين وثلاثة وتكثر الثمار من حولنا وغلب عيني النوم، وحينما حل الصباح هرولت إلى الشجرة حتى أملي عيني منها ولكن صُعِقت من هول ما رأيت من بإمكانه أن يهدم حلمي هكذا أين تلك اليد المدنسة التي ألقت بثماري على التراب وقطعت شجرتي التي بت على رعايتها وزفرت عيني دمعًا، وظل قلبي ينزف لأجل الشجرة.

ولكن أين تلك الرياح التي كانت تنوح على الشجرة، وظل عقلي يُفكر من فعل هذا؟

وأنا أجلس بين ذلك الخراب التفتت الرياح من حولي في نظرة ماكرة، ماذا حدث من فعل هذا بشجرتي يا ويلي فنظرت إليها في صمتٍ وتركت المكان وعزمت على أن لا أيأس وحينما يحلُ الصباح سأزرع شجرةً أخرى.

وبالفعل قمت بالعمل من جديد ولكن كلما أنبتت الشجرة ثمارًا وازدهرت بألوانها الخلابة، وحينما أقضم ثمرتي الأولى يُعيدُ ذلك الحاقد فعلته معي ويقتلع الشجرة من جذورها.

حتى صارت الأرض خاوية من الأخضر ولم يتبقَ للرياح ما تتغذى عليه كي يُعينها على البقاء، حينما رأتني وأنا أعتزم على الرحيل بعد أن تمزق قلبي على تلك الأشجار التي أكلتها النيران فُدمرت حلمي ورحلت بدأت تواسيني وتصطنع دموعًا لم يصدقها قلبي.

فرحلت عنها وهي لا تدري أنني لم أكتفِ فقط بزراعة أشجارها بل اخترت لنفسي أرضًا نائية وزرعت كل شبر فيها حتى أنبتت كل ثمارها لأستمتع بذلك اللون الأخضر الذي يحيط بأرضي، وأتذوق تفاح الشجر الذي زرعته بيدي.

وعصافيري يغردون من حولي فرحًا بشملنا الذي لن يقطع وصاله أحدًا، نستمتع سويًا بذلك النسيم الذي يُداعب وجنتينا بقطراتٍ من الندى المُحلى بلون السماء.

جنة الأحلام

بين تلك الإرهاصات المتلاحقة وتلك الدقائق التي لا تنوي على الرحيل لا زلت أتأمل ذلك الضوء الخافت الآتي من بعيد ورغم أن قلبي ما زال يشعر به ولا تراه عيني من شدة الغبار الذي أهلكها في هذا النفق الضيق أظل أتساءل هل قلبي على صوابٍ أم أن الظمآن يرى الماء وهمًا لتمنيه رؤيتها؟

الظلام الحالك يقتل قلبي الذي تهالك وحيدًا بين تلك الأحجار القاسية التي تنوي ألا يرى جسدي راحة ولا تهنأ روحي بالسلام في غفوة تتلهفها قلبي يخفق بشدة ويتمنى أن يتوقف عن تلك الدقات التي لا يسمع سواها في ذلك النفق الفسيح.

تلك الدقات التي ما زالت تجعله يحيا فيشعر كم أن روحي تتألم، ورغم ما يحيط بها من ظلام ما زالت تهوى النظر إلى السماء البعيدة حتى وإن كانت سماؤها هي سقف لذلك النفق الذي يرتطم بها بشدة.

ثم يعيدها جثة هامدة على تلك الأرض الوعرة، ومع مرور تلك النسمة التي تنعش ذلك الجسد المتهالك إلا أنها تأتي وتعود مرات عديدة ولكني لا أشعر بها مش شدة شعوري بانعدام الأكسجين وأتمنى أن تكون أنفاسي التي أخرجها هي أنفاسي الأخيرة تحت تلك الأنقاض.

بدأ الهواء يبتعد من حولي شيئًا فشيئًا حتى شعرت بالاختناق وبدأ جسدي يتهاوى على الأرض وسكنت عيني إلى الظلام، خيم الهدوء على المكان حتى شعرت بيد يملؤها الدفء تحملني، أشعر بجسدي يتحرك وأسمع خطوات ذلك الشخص تتحرك واحدة تلو الأخرى مع اتساع هذا النفق رويدًا رويدًا وذلك الهواء الذي ملأ صدري من جديد.

وفجأة اختفى صوت الخطوات حينما شعرت بجسدي يرقد على الأرض؛ ليست كتلك التي كنت عليها هناك؛ إنها ناعمة رقيقة ولكن أين ذهبت تلك اليد تساءلت ولكن خطفني ذلك الصوت؛ إنه صوت الطيور من حولي، وماذا عن تلك القطرات المنهمرة على وجهي أهذا فعلًا شلال أم إنني أحلم، ولماذا لا أستطيع أن أفتح عيني هل هذا المكان نوره شديد هكذا؟

فتحت عيني بشدة ولكن سرعان ما آلمتني من شدة الضوء فخفق قلبي بشدة، هل يُعقل؟ ثم بدأت أفتحها رويدًا رويدًا حتى وثبت على ركبتي وأنا أصيح يا الله ما هذا الجمال شلال وطيور ولونٌ أخضر يدب الحياة في قلوب البشر ثم بدأت ضحكاتي تعلو وتعلو وأنا أقف وألتف حولي لأُملي عيني من هذا المنظر.

وهرولت نحو الشلال كي تداعب قطراته النابضة بالحياة وجنتي التي أهلكهما الظلام وقلبي يرقص مع تغريد تلك الطيور وأقطف من ثمار الأشجار اليافعة وأطعمها بنهم، ولكن وقفت لبرهة متسائلة؟

كيف جئت إلى هنا؟ ومن أحضرني؟ وأين اختفى؟ هل ما أراه هو الحقيقة أم أن روحتي صعدت للسماء كي تتمتع بجنان ربها؟ ظل الفكر يراودني، هل أكمل تلك السعادة كي أعوض ما فات أم سأمضي للبحث عن الحقيقة؟

جزيرة لا تنام

بين تلك الأمواج المتصادمة مع صخورٍ صامدة لا تمل وذلك المطر الذي اقترب من السيل، غاب القمر وأضاء البرق المكان بضوئه المتعاقب ومياه البحر تمضي وتعود بين مدٍ وجزر.

خيم على المكان الصمت بين كل هذا الضجيج حتى تشعر أن المكان لا يحيا فيه أحد، احتضنت الأم صغارها بين جناحيها وهي تطمئنهم حتى يهدأوا ويتيقنوا بأن الأمور ستصبح على ما يرام.

هي بداخلها ترتجف خوفًا أن تهلك تلك الأمطار الغزيرة عشها الهزيل، ولكنها تستمد قوتها من هؤلاء الصغار الذين ينظرون إليها في ابتسامة حتى غلبهم النعاس وهي ما زالت تفكر لماذا تأخر زوجها إلى هذا الوقت؟

كيف لي أن أعرف ماذا حل به هل حدث له مكروه ولماذا تأخر إلى الآن يارب كيف لي أن أترك هؤلاء الصغار وأذهب للبحث عنه، ظلت تفكر ولكنها انتفضت بشدة من صوت ذلك الرعد الشديد الذي كاد أن يقلق صغارها النيام وهي تنظر حول الشجرة لا تجد من يعينها على نقلهم إلى مكانٍ أكثر أمانًا.

فالكل قد استعد لتلك اللحظة في هذا الشتاء القاسي ولم يترك للصدفة

أملًا في تدمير منزله، أما هي فإما تبحث عن طعامٍ لصغارها في تلك الجزيرة التي أنهكتها الصقور من كثرة حملات الصيد التي يقومون بها باستمرار، وجعلتها كمكان مهجور، أو بجوار صغارها خوفًا عليهم.

لم يكتفِ الموج بالاصطدام الدائم برياحه الهوجاء بتلك الصخور الصامتة بل أوشك على إغراق تلك السفينة التي صارت تتأرجح يمينًا ويسارًا حتى كُسِرَ ساريها وتمزقت أشرعتها وما زال قبطان السفينة ينادي بصوتٍ مرتفع: هيا أنقذوا الأشبال الصغار.

الوضع صار حرجًا الآن وعلينا أن نجد لهم مكانًا آمنًا، فنظر أحدهم من منظارٍ كان يحمله فرأى أن نور البرق قد أضاء مكانًا بعيد يشبه الشاطئ، فقال له أيها القائد كدنا نصل إلى بر الأمان علينا فقط أن نحذر الاصطدام بتلك الصخور حتى لا تدمر السفينة بالكامل.

بين تلك الأجواء حاول كل فردٍ منهم أن يحافظ على توازن السفينة حتى لا يصابون بأذى والإناث يحرسون الأشبال بين أحضانهم حتى لا يغرقهم الماء الذي بدأ يتسلل إلى السفينة.

صاروا حينها بين أمرين فإما أن يغرقهم الماء المتسلل إلى السفينة أو تلك الأمطار التي تهطل بشدة.

هم لا يعلمون ماذا ينتظرهم، ظل القائد يهتف بين ركاب السفينة وقلبه يخفق بشدة كيف له أن يمضي بهم إلى بر السلام.

وفي ذلك الجو الذي اشتعل خوفًا فقد القبطان الأمل وشعر أنه لا سبيل إلى النجاة، ولكن صعق من صوت أنين ليالي التي حينما أطلقت صرختها الأولى هرول إليها الجميع ظنًّا منهم بأن أصابها سوء وظلت صرخاتها المتعاقبة تنزل على رؤوسهم كالصواعق حتى سمعوا صوت بكاء الشبل الصغير بين هطول المطر وتأرجح السفينة فتنفسوا الصعداء.

وشعروا بالسعادة البالغة حينها تناسوا جميعًا ما يعانوا وحمل القبطان الشبل بين يديه وابتسم قائلًا لعلها بشرى النجاة ثم قبله من جبينه وحمله لأمه وأمر مسؤولي السفينة برعاية الأم وصغيرها تلك اللحظة التي توقف فيها القطبان عن الخوف والقلق أعادت له صفاء الذهن من جديد حتى يفكر بشكلٍ جيد.

نظر القبطان حسام إلى السماء وبدأ يفكر في هدوء وكأنه قد عزل نفسه عن كل ما يحدث وخطرت بباله فكرة ستحميهم وسفينتهم من الغرق هي أن يسيروا على أقل سرعة حتى تطلع الشمس وتجرفهم تلك الأمواج العاتية بالقرب من الشاطئ.

فهم لا يزالون لا يعرفون أين هم هل اقتربوا من الشاطئ أم أنهم ما زالوا وسط المحيط، بدأ القبطان بتنفيذ فكرته على الفور في حين ظلت حنين في عشها تفكر، يجافيها النوم وهي تنظر إلى صغارها وهم نيام لا يدركون خطورة ما حل بهم.

في مكانٍ آخر يحلق سامر بين تلك الأمطار الغزيرة في هذا الظلام الذي لا يضيئه إلا ضوء البرق بين حينٍ وآخر، ذهب بعيدًا من أجل البحث عن مكان آمن لأولاده وزوجته حنين بعد أن صارت الجزيرة غير آمنة تملؤها العيون المترصدة لأي فريسة سهلة.

ولكنه لم يجد ملاذًا أفضل من هذا الذي عاشوا وترعرعوا فيه، هو يحمل ذكرياتهم وأحلامهم التي عاشوا لأجل تحقيقها، هو يحلق وقلبه مفعم بالحماس يشعر بالسعادة لأنه سيعود لوطنه وأسرته، يحلق وهو لم يدرك ذلك الجو شديد الضباب الذي لا يستطيع الرؤية فيه بسهولة؟

كيف يمكنه الوصول؟

نظر حوله وهو يبحث عن طريقٍ آخر يسلكه بعيدًا عن تلك الأمطار المنهمرة، فوجد تلك الغابة التي لا تبعد عنه كثيرًا فحاول الاقتراب منها حتى يحلق بين أشجارها ولا يصيبه مكروه

وبالفعل حول طريق طيرانه فوق المحيط إلى تلك الغابة التي كان يبدو عليها الهدوء، لم يمر خلالها عدة أميال حتى شعر بحركة غير عادية بين الأشجار ورأى عيونٌ تلمع في الظلام فبدأ قلبه يخفق بشدة وشعر أنه كان مخطئًا حينما قرر أن يعبر تلك الغابة من أجل العودة إلى الجزيرة وبدأت الحركة في الغابة تصبح أكثر وضوحًا حينما سمع أصوات الفهود تحاول تسلق الأشجار من أجل اللحاق به فبدأ في زيادة سرعة طيرانه وقرر أنه

عليه الخروج من تلك الغابة.

طار مسرعًا وهم يهرولون وراءه حتى كاد أن يلامس أحدهم ريشه فيسقط فريسة بين أيديهم ولكن ذلك البرق الشديد جعلهم يتراجعون للخلف حتى تنفس سامر الصعداء وهرول مسرعًا بعيدًا عنها وذهب تحت تلك الأمطار وكاد أن يتوقف قلبه من شدة ذلك الماء المنهمر فوق رأسه، وريشه الذي تبلل بالكامل.

بدأ يشعر بأنه يفقد القدرة على الرؤية وبدأت نبضات قلبه في الهدوء والانخفاض.

لم يعد لديه القدرة على الطيران حتى هوى بين تلك السحب المفعمة بالماء وقد فقد كامل وعيه.

يتهاوى والسماء تترقب بشدة ماذا سيحل به حتى بدأت في منع قطراتها المنهمرة من السقوط شيئًا فشيئًا وبدأ البرق في الرحيل عن هذا الموقف.

نظر القبطان حسام إلى السماء ووجد أن الوضع يتحسن بعض الشيء فابتسم وهو يتنهد الحمد لله فرفع يده إلى السماء شكرًا لله حينها صاح أحد جنوده على السفينة أيها القبطان لقد وجدنا الشاطئ إنه على بعد بضعة أميال فالتفت إليه القائد في ذهول وما زالت يده مرتفعة إلى السماء يطلب من الله في تلك المرة أن يعبر بهم إلى ذلك الشاطئ بأمان.

تصاعدت أنفاسه وصعق حينما نظر ماذا أسقطت السماء في يده إنه

جسد سامر تهاوى حتى وصل إلى السفينة في يد القبطان حسام ظل لبرهة لا يدرك الموقف ولا يستطيع الكلام حتى صاح في من حوله أسرعوا أحضروا لي طبيبًا.

لم يتساءل من حوله كيف حضر هذا الطائر إلى السفينة فكلٌ منهم يقوم بمهامه على السفينة وقلبه يدعو أن يحل بهم السلام، سارع البعض منهم لنداء الطبيب وحسام يحاول أن يسمع قلب سامر هل ما زال على قيد الحياة؟

جسده يرتعش وأنفاسه تارة تتصاعد وتارة أخرى تتوقف.

قلبه ينبض بشدة، القائد ما زال قلقًا على سامر يحمله بين يديه وترك لبقية الأفراد الاهتمام بأمر السفينة.

حضر الطيب وطالب القائد أن يحملوه إلى مكان يبعد عن هطول المطر وكان بالفعل ما أراد وبدأ بالاطمئنان عليه وبدأ في إسعافه، يفعل كل هذا والمطر بدأ في التوقف شيئًا فشيئًا حتى تراجعت السحب وبدأ الخط الأبيض يشق السماء حينها بدأ سامر في السعال فابتسم القبطان حسام وهرول إليه أحدهم أيها القبطان لقد وصلنا إلى الشاطئ.

لم يدرك حسام حينها نفسه من الفرحة ولا ينطق على لسانه سوى كلمة الحمد لله ثم تمالك نفسه وقال لهم استعدوا من أجل أن نرسو هنا وقوموا بمساعدة باقي الركاب من أجل نزولهم هم وأشبالهم بأمان.

حينها استيقظ سامر قائلًا أين أنا بصوتٍ خافت فرد عليه حسام لا عليك حمدًا لله على سلامتك أولًا هيا استعد كي يحملك الجنود فنحن سنرسو على تلك الجزيرة حتى يتم شفاؤك ونطمئن على صحتك ثم نصطحبك للعودة إلى ديارك.

تبسم سامر وقال له أشكر أيها القبطان على تلك الرعاية التي لولا منحتني إياها لم أكن لأحيا من جديد، قال له لا تشكرني فهذا واجبي، حمله الجنود، ظل ينظر حوله حينما نزل من السفينة، هل أنا أحلم؟ لا لا إنها موطني إنها بالفعل تلك الجزيرة يقول كلمته والجميع ينظرون إليه في ذهول مع شروق الشمس بلونها الذهبي الذي تلألأت تحت نوره الجزيرة في أبهى صورة لها وكأنها دبت فيها الحياة من جديد نظروا إليها وهم يقولون هل تلك هي الجنة أم أنها حقيقة نراها بأعيننا؟

نزل إليهم القبطان بعد أن اطمئن أنه آخر فردٍ نزل من السفينة يخطب فيهم أيها الأسود نحمد الله على عودتنا سالمين وأعدكم بأننا سنقوم على إصلاح السفينة من أجل العودة إلى ديارنا ولن تدوم رحلتنا هنا طويلًا فنظر إليه أحدهم ولمَ لا فهذه الجزيرة تفوق الخيال وأجمل من تلك الغابات الموحشة التي كنا نعيش عليها، صاح حينها سامر في صوت متقطع أيها القائد إنها جزيرتي هل لي أن أطمئن على زوجتي وأبنائي؟

أين يقنطون يا سامر؟ فأشار إلى الشجرة التي تسكنها أسرته فأرسل

القائد أحد الطيور التي كانت معه على السفينة من أجل الاطمئنان عليهم فنادى الطائر: حنين..

كانت حنين قد غلبها النعاس قبل أن يرسو إلى الجزيرة فلم تشعر بهم.

نادي الطائر مرتين فلما سمعت حنين الصوت فَزِعت من نومها واستيقظ الصغار، خرجت من العش، نعم.. من أنت؟ قال لها إن زوجك يجلس بالأسفل جريحًا فامتزج على وجهها الحزن والابتسام وامتلأت عيناها بالدموع، ماذا حل به؟ حلقت وصغارها لا يزالون في العش لا تريدهم أن يروا أبيهم على هذه الحالة.

فلما رأته ارتمت بين جناحيه، ماذا حل بك يا حبيبي؟ ولِمَ تركتني كل تلك الفترة لا تغفو عيني من شدة القلق عليك؟ قال لها لا تبكِ حبيبتي فقد كنت أبحث لنا عن وطنٍ نجتمع فيه بسلام مع صغارنا ولكني لم أجد تلك الجزيرة التي أشعر فيها بالراحة والأمان كما عشنا هنا.

عرين الأفاعي

دقت الساعة السادسة والنصف فبدأت سعاد في تحضير "سندوتشات" ولدها ووضعتها في حقيبته وهي تردد هيا يا حبيبي حتى لا تتأخر على أول أيامك في المدرسة هل تعلم أنها مدرسة جميلة للغاية، اغلق الباب ببطئ وانزل بهدوء حتى لا تستيقظ جدتك وتقوم بمشاجرتنا في هذا الصباح الباكر.

ابتسم الطفل قائلًا أما زلتِ تخافين منها يا أمي؟ نظرت إليه الأم في ذهول لا لا يا بني بالطبع، إني فقط أخشى أن تغضب، ونزلا في هدوء وترجلا سويًّا فقد كانت المدرسة لا تبعد كثيرًا عن المنزل.

أمه سعيدة وهي تحادثه ذلك الطفل الذي لم يتعدَ عمره السبع سنوات ولكنه يحمل عقلًا يدرك الكثير في صمت، وصلا إلى المدرسة فتركته أمه قائلة استمتع يا ولدي وحضنها الطفل وهو يبكي: لا تتركيني يا أمي، قالت له: أنت أصبحت رجلًا والرجال لا يبكون هيا استمتع بيومك.

ظنت الأم بأن بكاء الطفل هذا لأنه اليوم الأول له في المدرسة وتركته ورحلت، أحضرت من السوق ما تريد وذهبت إلى المنزل وهي سعيدة مبتسمة تحمل قلبًا آخرًا ينبض من أجل ذلك الطفل الذي حباها الله به ليكون

جنتها في تلك الأرض الموحشة.

تمشي وهي تفكر كيف يمكنها أن تقضي تلك الساعات القليلة حتى عودة ابنها مروان، تهمس في سعادة سأعد له الطعام الذي يحب والحلوى اللذيذة أيضًا، هي تفكر وتفتح باب المنزل فلا تجد ضوءًا سوى نور الشمس صعدت ولم تطأ قدمها الدرجة الثانية، حتى صاح صوت يناديها سعاد، جعلها تنتفض بشدة ورمت من يدها كل ما تحمل والتفتت إلى الخلف فوجدت "حماتها" تنظر إليها بعينيها الجاحظتين فبدأت نبضات قلبها تتسارع بشدة وهي ترد: "نعم يا نينا" ولكنها تهمس بداخلها استرها يا رب.

فردت: هو كلام هاقوله مية مرة هو أنا مش قُلت شقتي ما تدخليهاش تاني وتحترمي نفسك بقى، نظرت إليها سعاد في مقت: ماذا تقولين إنني لا أتردد على شقتك منذ وقت طويل، وكيف لي أن أدخلها وأنت تغلقينها دومًا بالمفتاح.

فردت قائلة بصوت مرتفع: يمكن تكوني عاملة نسخة عليه أو ادلعتي على جوزي أو ابني عشان يفتحوا ليكِ.

قاطعتها سعاد في غضب: اخرسي بقى بطلي اللي انتِ بتقوليه دا، إنت إيه شايفة الناس كلها وحشة وانت اللي ملاك نازل من السما؟ إنت إنسانة حقودة وعمرك ما هتتغيري أبدًا، بقالي تمن سنين متحملة كلامك دا وما باردش ومش بارضى أقول لجوزي عشان دمه ما يتحرقش وما اوقعش بينك

وبينه، ردت حماتها في سخرية: لا ما تخافيش أنا قُلت له يا حبيبتي.

فردت عليها سعاد ما هو حكالي ازاي رد لي حقي وخلاكِ ما تتكلميش معايا تاني عشان عارف إن خيالك واسع وواثق إن الست اللي متجوزها إنسانة شريفة وبنت ناس.

تلك العبارة جعلت السيدة العجوز في قمة غضبها وبدأ التلويح بالكلام البذيء، ست!! ست إيه يا سعاد دا انت..............، وبدأ الحوار يتطور بينهما حتى رفعت تلك السيدة يدها على سعاد وأطاحت بها أرضًا فنظرت إليها سعاد وعينيها تملأهما الدموع: انت ليه بتعملي كدا؟ مفكرة إن سكوتي على ظلمك ضعف؟ لا ربنا موجود فوق أهو وحسبي الله ونعم الوكيل.

تلك الجملة جعلتها تشتعل غيظًا فاقتربت منها أكثر ودخلت ابنتها سلوى على كلمة زوجة أخيها فدخلت غاضبة: هي بتقول ليكِ إيه يا أمي هي تستجري ازاي إنها تقول كدا؟

وبدأت تبحث عن أي شيء تهدد به سعاد فوجدت عصا ملقاة على الأرض فرفعتها عليها قائلة: إياكِ ترفعي عينك في أمي مرة أخرى، فقالت لها: كفاية بقى انت بتستقوي كدا ليه منك لله انت وهيَّ.

استفزت سعاد سلوى بتلك العبارة فبدأت تدب بالعصا عليها وأمها تركلها بالقدم حتى بدأ الدم يسيل تحت أقدامهما فارتعشت يد سلوى: أمي، إيه دا دي شكلها ماتت، صاحت الأم ماتت يا ربي أعمل إيه؟ اِصحي، فوقي

انت هتجيبي لينا مصيبة هنا.

وابنتها تهدئ من روعها: يا أمي اهدي كدا الناس هيتلموا حوالينا وهنجيب لنفسنا مصيبة بجد، لازم نفكر بهدوء تام عشان نقدر نخرج من المصيبة دي بأقل الخساير.

- إزاي يا بنتي دا احنا رُحنا في حديد، أنا عارفة إنها ما دخلتش شقتي كنت بس متضايقة إنها مش بتكلمني وكنت عايزها ترجع تكلمني تاني ولو ما عملتش كدا كانت هتفضل طول عمرها مش بتكلمني.

تنهدت سلوى: انت جاية دلوقتي تقولي لي كدا يعني هي ما عملتش فيكِ حاجة، ياه الله أنا اللي غلطانة إني باوقع نفسي معاكِ، انت غاوية مشاكل طول عمرك يا ماما حرام عليكِ وقعتيني في مصيبة كبيرة.

بدأت في البكاء: أنا آسفة يا سعاد الله يكرمك فوقي أنا مش هاعمل كدا تاني ولا هاتدخل تاني في حاجة ولا حتى هاجي هنا بس فوقي ما تموتيش.

صاحت بها والدتها اخرسي بقى خليني أعرف أفكر، تركتها ودخلت وضعت رأسها تحت مياة باردة حتى تستعيد توازنها فلما رفعت رأسها بدأت عينها تلمع فقد خطر ببالها فكرة تخرجهم من تلك الورطة فابتسمت بدهاء وحملت هاتفها إلى الخارج وما زالت سلوى تبكي: تمهلي، هل تريدين أن تخرجي من ذلك المأزق؟ اتبعي ما سأمليه عليكِ، في هدوء قالت لها: حاضر يا ماما أتمنى إنك تكوني صح المرة دي ومسحت عن وجهها الدموع قالت لها:

بتعملي إيه سيبي دموعك زي ما هي وكملي عياط.

نظرت إليها سلوى في دهشة: إزاي يعني؟ قالت لها: اعملي زي ما باقول لك، وبدأت تقص عليها ماذا ستفعل فالتفتت إليها في اهتمام أتلك فكرتك؟ كيف خطرت لكِ تلك الفكرة.

قالت لها: دا مش مهم دلوقتي المهم إنك تنفذي بالحرف كل اللي قُلته ليكِ، فأومأت بالموافقة، أعطت الأم لسلوى الهاتف لكي تبدأ في تنفيذ خطتها وهما يبكيان معًا اِلحقني يا سيد وهي تنوح.

- ما لك يا سلوي ما لك بس ردي الله يكرمك أنا مش فاهم منك حاجه طيب فهميني انت ليه بتتكلمي من تليفون ماما؟

وهي ما زالت مستمرة في النحيب طيب خليني أكلم ماما أمه تحادثه وهي تبكي أيضًا الحقنا يا سيد مراتك.

- ما لها.. ما لها يا أمي وقامت بإغلاق الهاتف. لم يعاود الكرة في الاتصال ولكنه هم بالقيادة مسرعًا كي يعلم ماذا حل بهم ، قامت الأم بالاتصال بالإسعاف قائلة إلحقوني مرات ابني وقعت من على السلم ودمها سايح على الأرض.

كان منزلهم قريبًا من الطريق لذلك حضرت سيارة الإسعاف في دقائق قليلة وحينما حملوا سعاد تساءلوا ماذا حل بها؟ فتلجلجت سلوى وردت

الأم في ثبات لقد سقطت من الدور العلوي للسلم وخرجت على صوت الصراخ فوجدتها تبحر في دمائها.

ذهبت السيارة بسعاد إلى المشفى وقد كان على الحماة أن تذهب معها فذهبت وأقنعت ابنتها أيضًا الذهاب، يبكيان بشدة وقلبهما يرتعد هل بالفعل تلك هي النهاية أم أنها بعد، خدوش بسيطة؟؟

وهما في سيارة الإسعاف انتفضا على جرس الهاتف إنه سيد يتصل مرة أخرى؟ ماذا عسانا أن نفعل حملت الأم الهاتف في ثبات وغيرت صوتها وهي تحادثه أيوة يا حبيبي.

- ما لك يا أمي أنا مش فاهم منكم حاجة إيه الي حصل.

ردت: إلحقني يا سيد ه ه ه مراتك..

- ما لها يا أمي؟

- أخدها الإسعاف.

- فيه إيه بس قولي لي سعاد جرى لها إيه.

قالت: ما تقلقش يا حبيبي دي هي وقعت بس من على السلم وان شاء الله هتكون بخير.

أغلق بعنف الهاتف وبدأ في زيادة السرعة حتى وصلت إلى 140 كم في الساعة وهو يهاتف أخية حسن رد بقى انت كل دا فين.

- أيوة يا حسن.

- في إيه يا سيد مش عوايدك انك تتصل بدري كدا هو فيه إيه؟

- انت لسا هتسأل، مراتي الإسعاف أخدها ورايح بيها على المستشفى.

- انت بتهزر مراتك؟ إزاي طيب؟ خلاص خلاص أنا لسَّا ما وصلتش للشركة هالف وارجع تاني قُل لي بس هي في أي مستشفى.

- والله أنا ما فهمت من أمك ولا أختك حاجة بس هي أكيد في مستشفى الدكتور زهدي.

- خلاص ماشي أنا هاجي حالًا، أنهى حسن المكالمة مع أخيه وهو في قمة الذهول كيف يحدث هذا سعاد في المستشفى ربنا يستر، وعاد من حيث أتى، غير اتجاه سيارته من أجل اللحاق بأخيه إلى المشفى.

أثناء الطريق أوقف سيد شرطي المرور بسبب سرعته الزائدة وأراد أن يدون له مخالفة مرورية، ضابط المرور يحادثه وهو يلتفت إلى تلك الحادثة التي أوقفت الجميع في ذهول، عيناه تنظر وقلبه يخفق بشدة سأل الضابط ماذا حدث قال له إنها حادثة مروعة ولكنها لم يمر عليها سوى دقائق قليلة.

- كيف من هذا الطريق؟ اندهش الضابط حينما فتح سيد باب سيارته بشدة وتركه ونزل يهرول كي يرى الحادثة.

- انتظر لقد حررت لك المحضر يا فلان.

هو لا يسمع إلا صوت ذلك الهاجس، يوقف الجري ويمر ببطئ يريد الاطمئنان ولكن لا يريد أن يصبح حدسه صحيح، ولما وقعت عينه على

السيارة إنها بلون سيارته ماذا حل بها هل هي بالفعل نظر إلى تلك السيارة وكم كانت الأضرار التي حلت بها كيف يمكن لمن دهست سيارته هكذا أن يعيش من جديد؟

قلبه يخفق بشده ويتنفس الصعداء يتصبب عرقًا، يده ترتعش من كثرة الخوف حتى وقعت عينه على السيارة من قرب ومر من جوارها وصرخ حسن كيف هذا أخي انهض يا ناس الحقوني بإسعاف انتو إيه؟ هتفضلوا تتفرجوا كدا كتير؟ أخاويا....... فوق وهو يحاول أن يفتح عنه باب السيارة الذي من شدة الارتطام بعربة النقل الضخمة صار من الصعب عزله عن السيارة، يصرخ حتى أتت سيارة الإسعاف واستطاع ضباط الأمن بصعوبة بالغة أن يحملوا جسد أخيه إليها هو يبكى ولا يمكنه حتى أن يهمس مع نفسه.

استوقفه فقط صوت السائق إلى أي مستشفى ستنقله سيدي فرد في قلق اااااالدكتور زهدي مستشفى الدكتور زهدي، أمرك يا سيدي هكذا رد عليه السائق والطبيب الذي يرافقه يربت على يده: لا تقلق سيصبح بخير.

- كيف لك أن تقول هذا تمازحني ألا ترى جسده المتهالك الممزق لا توجد ثغرة فيه بلا جروح، فرد عليه الطبيب لا عليك كل شيء سيداوى بإذن الله، سند سيد رأسه على السيارة وهو جالس بجاور أخيه يهمس في صمت في الصباح زوجتي والآن أخي الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

كيف لي أن أبلغها، إن علمت أمي ستقع جثة هامدة في السرير المجاور له

في المستشفى آه يا رب ألهمني الصواب، وصلت السيارة وحملت أخيه إلى غرفة الطوارئ بسبب سوء حالته.

لمح والدته وهي تجري وراء السرير المحمول عليه زوجته والذي خرج للتو من غرفة العمليات، فحاول أن يغطي وجه أخيه حتى لا تعلم الأم وترك الطبيب برفقته هامسًا في أذنه: لو في أي شيء بخصوصه خليهم يبلغوني إن الدكتور عايزني وما تخلهمش يجيبوا سيرة أخويا خالص قدام أمي، أومأ الطبيب بالموافقة وأسرع من أجل إنقاذ الحالة.

ذهب نحو أمه: ابني الحقنى مراتك لسَّا خارجة دلوقتي من غرفة العمليات وربنا يستر يا حبيبي هنسأل الدكتور، تنظر الأم إلى ملابسه ما لك يا حبيبي وإيه اللي على هدومك دا.

- لا يا أمي ما تقلقيش دي حادثة على الطريق وكنا بنحاول ننقذ الناس.

- يا ساتر يا رب ربنا يصبر أهلهم ويقويك حبيبي على فعل الخير.

يلا نلحق الدكتور بقى ذهبوا بحثًا عن الدكتور فوجدوا أنه قد ذهب إلى غرفة الإنعاش التي تم نقل سعاد إليها.

اندهش سيد قائلًا إنعاش إيه يا أمي انت مش قُلتِ لي انها وقعت من على السلم؟ تلعثمت أمه في الكلام: أيوة يا حبيبي هه هو انا هاكذب عليك يعني، هرولوا إلى الغرفة فقابل أخته سلوى وهي تبكي بحسرة ماعلش يا حبيبي إن

شاء الله هتخف وتقوم ليك بالسلامة فطبطب سيد عليها وقبل رأسها وقال لها يا رب يا حبيبتي.

ثم وجدوا الطبيب وهو يتعجب من الحالة

- كيف حالها يا دكتور.

- لقد أخطأتم خطأً فادحًا فقد تركتموها تنزف كثيرًا.

- تنزف ازاي يعني هي ممكن تنزف كتير قوي كدا من وقعة سلم؟

أخذ الطبيب سيد بعيدًا عن والدته وقال له المدام على جسدها آثار تعذيب وضرب بعصا أو حاجة حادة وكمان ركلات مبرحة في الجسد بأكمله دا غير الإرتجاج في المخ اللي قد يتسبب لها في عدم القدرة على الكلام أو حتى فقدان الذاكرة لفترة زمنية ليست بقليلة.

الطبيب يتحدث وهو يهمس في صمت وينظر إلى والدته هل بالفعل يمكن أن تصل الشجارات بينهما إلى هذا الحد، قال له وماذا علينا أن نفعل يا دكتور، رد الطبيب ألا تتعرض لأي ضغوط نفسية مطلقًا حتى تتحسن حالتها وننظر في الأمر ثانية بعد أن نكرر لها الإشاعات على الكسور الجثيمة التي حدثت في جسدها.

شعر حينها سيد بالدوار ولكن تمالك نفسه ماذا عساى أن أفعل يا رب؟ اللهم أجرني في مصيبتي، ترك سيد الغرفة بعد أن نظر إلى زوجته من خلف

زجاج الغرفة بحزنٍ بالغ على ما حل بها، هو لا يزال لا يعرف ماذا حدث ولكنه يعلم جيدًا كم يحب تلك المرأة ولا يمكنه الحياة بدونها.

ذهب للمرحاض، سند يده على المرآة ونظر إليها وعينيه تملأهما الدموع وضع رأسه تحت تلك المياة الباردة علها تنبض فيه الحياة من جديد، ظل تحت المياة حتى بدأ يشعر بالاختناق وبدأ بعدها في التفكير بهدوء.

ذهب برفق نحو أخته سلوى، سلوى نظرت في تردد وهي تنظر لأمها نعم يا سيد.

- هو انت كنت موجودة لما مراتي اضربت قصدي وقعت من على السلم وثبت تحت قدمه والله يا سيد أنا ما كنت أقصد.

- قومي يا سلوى، اقعدي كدا بالراحة واهدي واحكيلي كل حاجة.

أمه بأسلوبٍ فظ: تحكي إيه ما قُلنا ليك إن مراتك وقعت عايز تعرف إيه تاني؟

- أمي لو سمحتِ أنا عايز أسمع منها هي روحي بس يا أمي اسألي عن الشخص اللي عامل حادثة وفي غرفة العمليات أمره يهمك.

- مين هو؟

- روحي بس.

- انت عايزني أمشي وخلاص حاضر يا سيد هامشي ونظرت إلى ابنتها في غضب، وخرجت قلبها يرتعش من قول ابنها فكلما أقدمت للذهاب لغرفة

العمليات من أجل السؤال كما أبلغها ترددت وتراجعت للخلف فهي تشعر

بأن وراء تلك الغرفة حزن عميق لم يحن موعده بعد.

ظلت تقف من بعيد وسيد يسأل أخته : لم تستطع سلوى الصمود كثيرًا مع تلك الأسئلة المتكررة من أخيها وقصت عليه ما حدث منذ بداية حضورها في الموقف فقد دخلت إلى المنزل وزوجته تردد حسبي الله ونعم الوكيل في وجه والدته تقص عليه وهي تبكي وتردد كلمة ما كنتش أقصد والله بس عدم صدها لينا واستسلامها دا كان بيستفزنا أكتر هو ينصت وقلبه يتمزق يومئ برأسه لها لتكمل الحديث وكأنه يتوعد لها، انتهت من الحديث ونزلت على ركبتيها ثانية مقبلة يد أخيها الأكبر أرجوك سامحني والله أنا باحبها وما كانش قصدي.

نظر لها في حزنٍ مفعم بالسخرية أسامحك على إيه بس ادعي ربنا يسامحك ويغفر لك، انت يا هانم اتسببتِ إنت وماما في عجز مراتي حتى نهاية العمر وممكن كمان تفقد ذاكرتها، وضعت يدها على وجهها من الذهول وهمست هعمل إيه بس لازم يفهم إني ندمانة بجد، بدأت تدفع رأسها بقوة في الحائط قال لها في مكر: هل سأصدق ذلك أو سأقوم بتنحيتك جانبًا لا يا عزيزتي لم يحن دورك بعد تركها وذهب لإحضار والدته التي بدا عليها الخوف والريبة.

- أمي، سألتِ عن الحالة اللي كانت جاية في حادثة؟

- نظرت له قائلة في قلق وانا اسأل عنه ليه هو كان من بقية أحبابي بعد الشر.

- ماشي على العموم هو حالته خطيرة ما زال أمامه الكثير حتى يخرج من العمليات، نظرت في حيرة ولم تتفوه بكلمة.

- اجلسي يا أمي فقد حان دورك من أجل الإجابة والاعتراف فقد قصت أختي كل شيء ولم يحدث لها مكروه أكملي لي الجزء المفقود من القصة فقالت له بثقة: بصراحة كدا مراتك مش بنت أصول ولسانها كمان طويل وهي استفزتني قمت زقتها.

- يا أمي زقيتها بس؟

- أيوة وركلتها بقدمي...

- على العموم من غير ما تكملي عشان أنا شفت بعيني عاقبة ما فعلتِ فعرفت هول صنعك.

- يعني إيه قصدك بالكلام دا؟

- يعني في نفس اللحظة اللي انت كنت بتدمري حياتها وحياتي وتقومي على وأد حياتها كان ربنا الجبار بياخد حقها وانا جاي ليكم المستشفى تخيلي مين عمل حادثة؟

- مين؟ حادثة..!!

- أيوة ابنك حسن هو اللي قُلت لك اسألي عنه.

صرخت: يا ابني، هرولت إلى الخارج وهي تتعثر بكل من يقابلها حتى شعرت بأن قلبها كاد أن يتوقف من سرعة دقاته، واصلت السير حتى وجدت غرفة العمليات يخرج منها شخص والأطباء يسيرون وهم يحادثون المرضى بصوت مرتفع: اطلبوا أهله من أجل أن يحضروا للبدء في تنفيذ مراسم الدفن.

هي تنصت لهم وعيناها على السرير الذي يحمل المريض فلما رفعت عنه ذلك الغطاء الأبيض كان سيد يحادث سلوى من اليوم لا تفكري في زيارتنا مطلقًا فقد حرمت على نفسك دخول بيت أبيك أو حتى أن تمشي في طريقي لقد أهلكتِ حياتي بالكامل بدلًا من أن تقومي بالصلاح.

شرعت هي في البكاء وصاحت الأم: ابني فرجت بصياحاتها جدران المشفى وهرول سيد وسلوى إليها في ففزع واستيقظت سعاد على الصراخ والنحيب.

ملحمة الكبرياء

بين تلك النسمات وضوء القمر الذي ينظر من بعيد كيف لتلك الليلة أن تنتهي على هؤلاء الجنود، هرول ذلك المحارب ويده ملطخة بالدماء لا يصدق هول ما يرى يجري وقدمه تتعثر بجثث وأشلاء زملائه، يهتف كيف لنا أن ننجو أليس هناك هدنة يهتف ولا أحد يلبي النداء فصليل السيوف وصوت الدماء المتناثرة هو الأقوى، ينظر حوله وملابسه قد سيطر عليها ذلك اللون الأحمر قد كان ذلك الجندي يحمل جثة صديقه الذي طعن برمحٍ من الأعداء فحاول أن يبعد جثته عن المعركة وحاول أن يسعفه، ولكنه لفظ أنفاسه الأخيرة قائلًا ه ه ه صديقي لا تضحي بنفسك في تلك المعركة إهرب وابحث عن مكانٍ ه ه ه آخر يمكنك أن تعيش ه ه ه بلا طغيان وأوامر من أناسٍ ترى أرواحنا لا قيمة لها صديقي ه ه ه، لا لا تفعل، انهض لا تتركني وحيدًا ليس لي غيرك كيف لي أن أعيش وأنا لم أتمكن من إنقاذك ،انهض إن العروس تنتظر الانتصار من أجل إتمام الزواج انهض... آه يا صديقي.

يحادثه وهو يغمض عينيه ويقبل جبينه أتعلم كنت أتمنى أن أحمل أبناءك على كتفي وألاعبهم كم سأشتاق إليك، ثم مسح عن وجنتيه نهر الدموع الذي أرهقها وقال في صمود لكنني أعدك أن آخذ حقك من هؤلاء

الغادرين الأوغاد وترك جثته ترقد بسلام شاهدة على لهيب المعركة ورحل بهرول،

حينما تذكر كل هذا أدرك حينها ماذا عساه أن يفعل، يرى الرماح تُهوي من حوله ويسمع تأوهات الجرحى ويشعر بتلك الأرواح الطاهرة التي تنظر إليهم وتصعد إلى الجنة بسلام، هو لا يبالي بكل هذا فقط هو يسمع صدى صوته يرن في أذنيه، امضِ، اهرب ولكنه في تلك المرة لن يستمع إلى هذا الهراء إلى متى سيظل تحت إمرتهم يمضي حيث يأمرون ويبقى ويضحي بروحه حين يشاؤون.

لمح من بعيد ذلك الشخص الذي قرر أن يحادثه من أجل حل الأمر فترجل إليه في هدوء ثم تَقَدَّمَ إليه قائلًا كيف حالك أيها القائد، نظر إليه القائد في عجب كيف لي أن أكون بخير بين تلك الأشلاء.

فلمعت عين الجندي فقد وفرت كلمته الكثير، فرد قائلًا كلماتك تلك يا سيدي هي بداية طريق حل القضية فنظر له متسائلًا وكيف؟ قال له: أنت تحزن كثيرًا لحال تلك الأرواح التي أُزهقت بسبب ذلك العناد وكان بإمكاننا أن نحافظ عليها.

- أكمل أيها الجندي.

- لماذا لا نذهب إلى الملك حتى نطلب منه الموافقة على تلك الهدنة التي بإمكانها أن تحل كل شيء وبمرور الوقت يمكن للدولتين الصلح إلى الأبد،

ابتسم القائد: يا لها من فكرة جيدة ولكن هل له أن يوافق.

- ولمَ لا؟ حينما يرانا متكاتفين جميعًا ربما يتغير من الأمر شيء، أُعجب القائد لفطنته وقال لن نخسر شيئًا من المحاولة ولكن شرطي هو أن تتولى مهمة إقناعه فأنت صاحب الفكرة، لم يسعده الأمر كثيرًا فما زال قلبه يتمزق على روح صديقه التي فارقته.

ذهبا سويًا إلى باقي قواد الجيش وكان الجميع منزعجين لذلك الشأن بشكلٍ كبير، فوافقوا إلا القليل منهم الذين كانوا يخشون من غضب الملك، اقتربوا من خيمة الملك يتقدمهم الجندي كلٌ منهم يده على غمد سيفه استعدادًا لأي عدوانٍ مباغت.

يقتربون من الخيمة وهم يستمعون إلى قهقهات ذلك الملك وصوت هؤلاء النسوة اللواتي يصطحبهن الملك معه في كل مكان، الجميع يشتعلون بداخلهم ولكنهم يحاولون أن يتمالكوا أنفسهم حتى يتمكنوا من إقناع ذلك الملك.

يحاولون أن يدخلوا إلى الخيمة ولكن حرس الملك يمنعهم إلى أين تذهبون؟ فرد الجندي نريد مقابلة الملك، وماذا تفعل أنت أيها الجندي بين قواد الجيش؟ القائد الأعظم: ليس من شأنك أيها الحارس أبلغ الملك بقدومنا إليه لأمرٍ هام، فنظر إلى الجندي بتعجب وسخرية وذهب إلى الملك.

وافق الملك على مقابلتهم وبدأ صوت القهقهات ينخفض وبدأ يهمس في آذان الفتيات فلتهدأنْ ربما أتوا من أجل أن يخبروني بالنصر فاذهبن الآن ثم سأبلغ الحرس ليبلغكن من أجل أن نحتفل سويًّا.

تعالت ضحكات النسوة أرجاء المكان، ثم انصرفنْ، حتى أن أحد القواد اصطدم بإحداهن أثناء دخوله للخيمة فنظر إليها في عجب وهو يهمس نحن نتمزق في المعركة وهو يلهو مع النساء ه ه، رحم الله والده كان ملكًا عظيمًا.

دخلوا عليه، ألقوا التحية كان الملك جالسًا يحتسي الخمر وقف يترنح يمينًا ويسارًا وهو يحادثهم اجلسوا اجلسوا هيا أخبروني كم عدد قتلاهم وكيف كان لكم النصر، نظر كلٌ منهم إلى الآخر في عجب وتساؤل.

من أبلغك بذلك النصر الزائف؟ نظر الملك في سخرية من أنت أيها الجندي وكيف يسمح لك القواد بأن تتحدث نيابة عنهم فأجاب قائدهم في حِدة دعه أيها الملك يكمل حديثه إن الأمر غاية في الخطورة.

نظر الملك في اهتمام ورمى عن يده ذلك الكأس وجلس في صمت يستمع إلى ذلك الجندي.

- أيها الملك، لوَّح الجنود لنا أن ننسحب، لقد هلكنا.

رفع يده في عجب: الموت منكم اقترب.

- نظروا إليه في غضب.

- لا تهربوا

بل حاربوا

فلتقدروا

لا تمكروا

لا تنكروا بأنكم لا تقدرون

ضعفٌ وشيبٌ وارتحال

ألم تروا بأنكم لم تفعلوا لأجلي المحال

وقلوبهم غيظًا تعتصر

أهذا ملكهم المنتصر

لم يكتفِ بالسخرية لمقامهم ولروحهم الطاهرة

بل بدأ قصيدة أخرى فكانت ها هي.

ها ذا أنا

الخيل مني يستعد

ورياح سيفي

منها عدوي يرتعد

أما جنودي

فقد عهدت بضعفهم

من قدرهم

لا أمتلك إلا القليل

والبعض منهم صار فرسٌ ذليل

واليوم قد أيقنت أني ظهري عليلٌ منكم

فتقدموا إلى عرشه، لم يرتعدوا لمقامه

لمَ تقذفوني هكذا بعيونكم البالية

نظروا إليه في عزةٍ

حارب بسيفك تلك الجيوش الآتية

وأمر رياحك أن تقبض أرواحهم

قبل المجيء على خيولٍ عاتية

لعلها لك القاضية

هبوا جنود الحرب

وارحلوا

اتركوا لعن الخمور

يقتسم رماحه

يُقتَل ويَقْتِل بمفرده

يأخذ نساءً في لهوه

حتى يقيموا ويجلسوا على عرشه

يبقى ذليلًا حينها

يعلم بلطف رماحنا

وأنها خذلت كثيرًا

بامتناعٍ عن روحه

حتى يعود المجد لبلادنا

السيف بين يدِ جنده

في عنقه هم يصرخون

انهض وقاتل

قم أولًا تحت المياة الطاهرة

كي تعتصر لعن الحرام

من جثتك البالية

لا تغضبوا

سارعوا للصلح هيا

وأرجعوا باقي الجنود

علهم لا يهلكون

تراجعوا بسيوفهم

بنظرةٍ من كبرياء

هيا انتصرنا

وعاد عرشنا بمقامه فوق السماء

على شاطئ المتوسط

على صوت تلك المياه الجارية مدًا وجزرًا وشمسها المتألقة كالذهب بين زرقتها ونسيم البحر المنعش، وفي صباحٍ باكر كانت ليلى تقف في شرفة المنزل تتمتع بذلك الجو ولما شعرت بالهدوء أحضرت كرسيًّا للجلوس حتى تعطي لعقلها هدنة من التفكير الذي طال ليلًا.

كانت ليلى فتاة في الثلاثين من عمرها حباها الله بقلبٍ كالسماء الصافية لا يشوبه شائبة وعينين تغمرهما البراءة تشع نورًا يشعل القلوب حبًّا لها، ولكن ليلى لم تحظَ بالجمال الذي تحلم به كل فتاة لتقتحم قلوب العشاق وتنال إعجاب من حولها فقد تعرضت لحادثة في صغرها أثرت على ملامح ذلك الوجه الملائكي.

لكن أسرتها كانت تسعى دومًا بألا تشعر الفتاة بذلك النقص الذي كاد أن يهلك قلبها فقد كانت تعاني كثيرًا منذ طفولتها فهي لا تمتلك أصدقاء كلما اقترب منها طفل ورأى وجهها تراجع للخلف خوفًا وهرول فرارًا يتركها بعينين تملأهما الدموع وقلبها ينزف من الألم

لم يمر عام على ليلى إلا وتراكم في قلبها حزنٌ جديد، خيمت على حياتها الوحدة والسكون الذي بإمكانه أن يهلك أي إنسان حزنًا ويأسًا ولكن تلك

الثقة التي زرعتها أسرتها بداخلها جعلتها تقف على أرضٍ صلبة ثبَّتت أقدامها في سحب الحياة التي لا تتوانى أن تسبح شرقًا وغربًا بقلوب البشر.

رغم كل تلك النظرات الحادة التي قابلتها ليلى يومًا بعد يوم ممن حولها إلا أنها لم تعرها اهتمامًا، كانت شغوفة بالدراسة والعمل وبحثت بداخلها عما تحب حتى وجدت بين الريشة والألوان أحلامًا وردية تسبح بين زرقتها وتطير إلى دفء شمسها الذهبية وصارت الألوان هي صديقتها التي ترافقها دومًا.

كانت ليلى منهمكة كثيرًا في العمل الذي كلفت به بعد إتمام دراستها من قبل الحكومة، ورغم أن هذا العمل لم يتناسب مع هوايات ليلى إلا أنها كانت متفوقة كما هي دائمًا وأثبتت نفسها في العمل وكانت تنتظر بفارغ الصبر تلك الإنجازات حتى تختلي بريشتها وتنصت إلى همس الألوان تتناغم مع الطبيعة في إبداع على هيئة صورة حية.

في أحد الأيام اقترح زميل لها قضاء إجازة الصيف على شاطئ المتوسط بعيدًا عن ضجيج العمل ومتاعبه التي أنهكتهم طيلة العام، وافقت ليلى على الفور فقد مر على آخر إجازة لها أكثر من عام.

حزم كل فردٍ أمتعته وسافروا سويًّا عبر الأتوبيس إلى مدينة الإسكندرية وحينما وصلوا إلى المكان عرض عليها جميع زملائها أن تسكن معهم في شققهم إلا أن ليلى رفضت كل تلك العروض فقد تعرضت لكثير من

المواقف الحادة منهم، وقد عانت الكثير فكلما بدأت علاقة حبٍ مع أحدهم وبعد أن يخفق قلبها لأجله عشقًا يبدأ هو في التراجع خوفًا من الأحاديث الخبيثة لمن حولهم، وتظل هي في كل مرة تجمع أشلاء ذلك القلب الممزق الذي اقتربت دقاته عن التوقف من كثرة النزيف.

فضَّلت ليلى الوحدة في شقتها بعيدًا عنهم حتى لا تترك نفسها فريسة لنظراتهم الماكرة التي لا تمل من التساؤل والحيطة، كلٌ منهم ذهب لغرفته وهي حملت حقيبتها وذهبت إلى شقتها كي تستريح من آثار السفر.

ظلت ليلى تفتح أبواب الغرف تتأملها لبرهة ثم تتركها وترحل لأخرى حتى أنهكت وحل عليها التعب وبدأت تشعر بالنعاس فألقت بتلك الحقيبة على السرير، وقامت بفتح الشرفة لعلها تجد بين نسيم البحر ملاذًا لها.

هي تفكر بينما ذلك الهواء العليل يداعب وجنتيها ويجعل شعرها يتراقص على لحن الأمل وهي متكئة بيدها على حافة السور تبحث عن أرض حصينة لكن يملأها الحنان، وبعدما لم تجد مفرًا من الوحدة ابتسمت حينما تنهدت فشعرت بذلك الهواء البارد يتخلل قلبها فيشعرها بالحياة

دخلت ليلى لتبحث عن كرسي لكي تستمتع بهذا المشهد الرائع بين زرقة البحر ونسيمه البارد وصفاء السماء وذلك البدر الذي ينيرها فتتألق النجوم من حوله كالآلئ، لم تتردد أن تفتح حقيبتها وتخرج الريشة والألوان الذين طال انتظار حديثها معهما، هي تعشق أنغامهما اللتان يتغنان بهما مع

الطبيعة، ترتهم مبتسمة: هيا كي نتناغم سويًّا من جديد.

رغم تحسن حالتها في ذلك الوقت إلا أنها ظلت تنظر إلى السماء وبيدها الريشة تحركها وهي فارغة الألوان على اللوحة التي ما زالت بيضاء بعض أكثر من ساعة ونصف هي تنظر إلى السماء وتحملق في اللوحة ويسرح بها الخيال إلى وادٍ بعيد تتمنى ألا تتركه أبدًا، يسيطر على حركاتها السكون وقلبها ينبض بهدوء تام كأنه سعيد بحالها، لم يتبقَ سوى ساعات على شروق الشمس ولكنها لم تشعر بمرور الوقت هي فقط تستنشق ذلك النسيم ولا تجد بدًّا من ملامسة قطرات الندى المنبعثة من تلك السحابة المارة بجوارها.

مر الوقت سريعًا ولم تشعر ليلى بحالها إلا حينما رفعت عينيها إلى السماء فانطفأ نورهما من شدة نور الشمس الذي شق المساء ومحى نور ذلك الخيط الأسود الدامي، وظلت عينها تؤلمها حتى قررت أخيرًا أن تخلد إلى النوم.

تركت كل أدوات الرسم حتى دون أن تنظر ماذا رسمت الألوان، نامت ليلى من شدة التعب دون أي مقاومة منها لكنها فزعت على صوت زميلها أحمد وحينها تذكرت بأنهم قد اتفقوا على الذهاب سويًّا من أجل شراء بعض المستلزمات.

فهرولت كي تبدل ملابسها ولكنها نسيت بأنها نامت بملابس السفر،

فأرادت أن ترد عليه من الشرفة فسمعت أحدهم يحادثه هيا يا أحمد لماذا تصر على أن تحضر تلك الفتاة ذات الوجه العابس معنا ألا ترى وجهها إني أشعر بالضيق حينما أراها.

يمسك بيده ويحاول أن يبعده عن شرفة شقتها من أجل الذهاب بدونها هو يسخر ويتهكم دون أن يدري أن أحمد عينه لم تلتفت بعيدًا عن الشرفة وقد رآها وهي تنظر فسمعت ونظر إلى عينها التي ملأتها الدموع.

هرولت ليلى إلى غرفتها وبدأت تبكي بشدة فهي ما زالت تتصنع أمامهم التماسك والقوة وهي بداخلها هشة بقلب عصفور لا يتمنى سوى عش يملأه الحنان، ارتمت بين أحضان سريرها علها تجد فيه الراحة والسكون وظلت تبكي حتى هلكت ونامت، لم يتذكر غيابها أحد فكلٌ منهم يلهو مع من يحب.

استيقظت ليلى على صوت أذان المغرب فشعرت بالطمأنينة وظل هاتف يلازمها بأن غدًا أفضل لا تحزني هي تبتسم بسخرية وبداخلها يقين بأن الله لن ينساها وستأخذ نصيبها من البهجة والسرور حينما يشاء رب العالمين، قامت فأخذت "حمَّامًا" دافئًا كي تستعيد حيويتها من جديد ثم ركعت بين يدي مولاها ولن تبكي تلك المرة بل ستدعو ربها كي يخفف عنها، هي تحمده على بلائه ولكن هؤلاء البشر لا يتركونها ترحل عن عالمهم الزائف الذي تترأسه الأقنعة.

هم لا ينظرون سوى لذلك الجمال اللافت للنظر من الوهلة الأولى، لا

ينظرون بداخلها ليروا فحواها وجمال قلبها، بدأت تبحث عن طعام في حقيبتها وبدأت في تحضيره وبعد تناول طعامها جلست تحتسي كوبًا من القهوة وفتحت الراديو كي تكسر حاجز الملل.

لم تتناول ليلى سوى الرشفة الأولى، حتى انتفضت على كلمة "خبر عاجل" يذاع للمرة الثالثة على الإذاعة المصرية كيف ذلك وأين كنت أنا هي تتساءل وتزداد الدهشة وهي تنصت بشدة كي تعلم ما هي تلك الأخبار الهامة.

ثم همت مسرعة بعد أن علمت بأن عدوانًا باغتًا قد أصاب مدرسة بحر البقر وانتزع الحياة من تلك الأطفال البريئة التي ما زالت ناصعة كالسحب التي تمطر الخير.

هي لا تعلم ماذا عليها أن تفعل حيال هذا لم تنتظر أن تستمع باقي الخبر ولكنها التقطت معطفها وحقيبة يدها ورحلت تاركة كل شيء تهرول وعيناها تملأهما الدموع، متسائلة كيف لهم أن يفعلوا ذلك أهم بشر أم نزعوا عن أجسادهم ثوب الرحمة والإنسانية؟

تهرول وتصادف في طريقها أحمد وبعض الزملاء يلعبون بكرة الشاطئ لمحها هو فهرول وراءها: ليلى انتظري حتى لامست يده يديها برفق انتظري إلى أين تذهبين في ذلك الوقت المتأخر هي تفكر فحسب لم تعر كلماته اهتمامًا وانتزعت يدها بعيدًا ورحلت.

هم ينظرون في سخرية ويحاولون أن يبعدوه عنها كي يكملوا اللهو والمرح، وهي تمضي في طريقها من أجل اللحاق بهؤلاء الأبرياء صعدت إلى الطريق من أجل أن تجد سيارة تقلها ولكن بسبب الأجواء المحيطة والأحداث الأخيرة ظلت تنتظر لساعات طويلة ولكنها لم تيأس إلى أن رأت سيارة من بعيد فوقفت تشير لها بالوقوف.

عرضت على السائق أن يوصلها إلى مكان الأحداث مقابل أي مبلغ يشاء نظر إليها السائق وهي لا تستطيع الوقوف من شدة ألمها فقال لها هدئي من روعك يا بنيتي فهذا هو طريقي ولن أطلب منك المزيد من المال فقط أجرة السيارة.

صعدت إلى السيارة والصمت يخيم على جوارحها وفقط عقلها مندهش، ماذا حدث هل يمكنني أن أفعل شيئًا حيال تلك القضية، ظلت هكذا حتى استفاقت على صوت السائق هيا يا سيدتي قد وصلنا لا يمكنني المرور أو السير لأكثر من ذلك فردت وعينها تبحث وتتجول في المكان لا عليك.. تفضل.. شكرًا لك.

نزلت ليلى وهي تترقب وقلبها يخفق بشدة هل يمكنها أن تتمالك نفسها حينما ترى الدماء وعندما وجدت الكثير من الأشخاص يلتفون حول أمر ما ذهبت لتستكشف الأمور، بدأت تتخلل بين هؤلاء الناس من أجل رؤية ما حدث ولكنها صعقت حينما نظرت إلى دمائهم تختلط بكتب الدراسة على

صفحات قال فيها المسيح عليه السلام "على الأرض السلام وفي الناس المسرة"، وطفل آخر بيده مصحف ملطخ بدمه وقد كان يرتل"ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان"

أصيبت بالجنون كيف يجرؤون؟ ولكنها لم تستوعب الصدمة من تلك الدماء المتناثرة على الأرض وأشلاء هؤلاء الأبرياء مبعثرة هنا وهناك، فسقطت مغشيًا عليها بينهم.

هم يحملون الأطفال ما بين جرحى وقتلى وهي تتهاوى على الأرض.

صاح أحدهم لقد فقدت الوعي أحضروا طبيبًا على وجه السرعة فبحثوا عنه وأمر الطبيب بحملها إلى سيارة الإسعاف كي يقوم بإسعافها ثم يكمل أعماله الهامة، قام الدكتور عادل بإعطائها حقنة من أجل أن تستفيق في أسرع وقت.

تركها وزاول عمله ثم عاد بعد نصف ساعة كي يطمئن عليها وبدأ في الهمس بجوارها حتى لا تنتفض وتستيقظ في هدوء، فلما أشرقت عيناها شعر برعشة في قلبه، ورأى خلالهما براءة تشعل القلوب لها حبًا.

فابتسم وقال لها في هدوء حمدًا لله على سلامتك آنسة..... فردت عليه بصوتٍ خافت ليلى، فسألها : لماذا أتيت إلى هنا وأنت تحملين ذلك القلب المرهف فابتسمت في ألم، أتيت كي أساعد هؤلاء الأطفال بكل ما أوتيت من قوة حتى وإن عملت ممرضة في المشفى من أجل شفائهم والسهر على

راحتهم، وأتمنى لو أستطيع أن أخفف من آلام آباء الأطفال الذين استشهدوا نتيجة لهذا العدوان الباغي.

ليس هذا فقط بل سأتبرع بكل مالي حتى يثأر الجيش من هؤلاء الخونة الذين لن يتراجعوا عنا سوى بالقوة، فتبسم في عجب مما قالت تلك المرأة، كيف يكون هذا هو كل ما تهتم به تلك المرأة في دنياها، أين هي اهتمامات كل امرأة أراها في طريقي من الموضة والتجميل والتنزه أين هي من كل هذا؟

بشكلٍ عام من الممكن أن تذهبي معي إلى المستشفى لكي تقومي بدورك هناك كمواطنة تخفف من أعباء الوطن ففرحت لقوله ولكنه تابع حديثه قائلًا ولكن بعد أن تستجمعي قواكِ، حتى تصيري قادرة على تحمل العمل

فاتكأت على ساعديها محاولة النهوض قائلة إنني بصحةٍ جيدة أنا كالحديد، انظر.. ولكن يدها ارتعشت وارتدت على الوسادة مرة أخرى، فقال لها لا عليكِ لا تحاولي أن تنهكي نفسك فلن نذهب من المدرسة حتى نحمل باقي الجثث ستكونين حينها بخير.

تركها وذهب كي يكمل عمله، وأحضر لها الممرضة كي تطمئن على حالتها، وقبل أن ينهي الدكتور عادل وزملاؤه العمل في مكان الحادث كانت ليلى قد استعادت قواها وبدأت في نزع تلك الحقن التي وضعت في يدها من أجل المحاليل التي ستجعلها تستعيد الوعي مرة أخرى.

الدكتور عادل كان من أكفأ الأطباء في المحافظة التي نشأ فيها، بل وعلى

مستوى دولته أيضًا فهو الطبيب المقرب من الوزراء والذي يستشيره كبار رجال الدولة ليس فقط في الطب والأدوية بل حتى في حياتهم الشخصية.

هو لا يتعدى الثلاثين من عمره ولكنه يملك من الحكمة والعلم ما يجعل منه رجلًا ذا هيبة ووقار، وأيضًا محبوبًا من كل من يقابله.

نزلت ليلى وقلبها يبحث عنه في كل مكان، عينها تتجول وتحدق بشغف في كل الوجوه، هل سأظل أبحث عنه حتى يحين الليل أم لن أراه ثانية.

وبينما هي منشغلة في البحث عنه انتفضت حينما سمعت صوتًا ينادي آنسة ليلى، ها أنت قد صرت بحالة جيدة الآن، هي تلتف بوجهها وقلبها يخفق بشدة حتى يكاد يتوقف عن النبض.

فلما رأته أمام عينها كادت أن تقع مرة أخرى فتشبث بيدها قائلا بلهفة ماذا بك هل ستفقدين وعيك مرة أخرى، لا كوني قوية فنظرت إليه بحنان وتراجعت للخلف وهي تبعد يدها عنه بشدة لا لا لا تقلق إني بخير.

هي تعلم ماذا يحل بها في كل مرة ينبض قلبها لرجل فكل بداية نهايتها الألم، بدأت حينها في التحدث بجفاء مع عادل هي تتحدث بصرامة قائلة لقد وعدتني بالذهاب معكم إلى المستشفى وأرى أنكم قد انتهيتم من العمل هنا ألم يحن الوقت من أجل الذهاب.

اتضحت ملامح الدهشة على وجه عادل حينما رأى تلك الحدة في حديث ليلى فرد مسرعًا هيا بنا ستقلنا هذه السيارة ثم ركبا وذهبا إلى المستشفى.

هو يريد أن يبدأ الحديث معها من جديد ولكنه يخشى أن تحدثه بجفاءٍ مرة أخرى، ولكنها تخشى أن تلمح وجهه أو حتى تستمع لكلامه العذب وأن يعلق قلبها بين يديه لذلك ظلت طيلة الرحلة تنظر إلى الأمام تتمنى أن ترتمي بين أحضانه عله ينسيها كل تلك الآلام التي مزقت قلبها.

ولكن ما مرت به قد علم قلبها الثبات، تتمنى أن تغلقه بسلسالٍ ضخم حتى لا ينبض مرة أخرى، نظر الطبيب لها أكثر من مرة يتمنى أن يغوص في عينيها التي يملأها الحنان والدفء ولكنه يأس من أن يحادثها ثانية.

ولكن كيف له أن يحادثها أو يعرف عنها شيئًا مرة أخرى بدأ يفكر، حتى خطرت بباله حيلة، جعلته يتنهد وهو يشكر ربه على تلك الهدية التي ستجعل الود بينهما موصول حتى وإن كان من بعيد.

وصلا، وقبل النزول طلب من الممرضة أن تأخذ منها العنوان الخاص بها وجميع المعلومات بحجة أنه على كل من ينضم إلى التمريض في المستشفى أن يستعلموا عنه ويطمئنوا عليه إن غاب.

نظرت إليه في دهشة ليلى ولكنها أخبرت الممرضة بكل تساؤلاتها دون أن تشك حتى في أنها فكرة ماكرة من عادل حتى يتعرف عليها ويستطيع أن يتواصل معها فيما بعد.

كانت المستشفى يملأها الزخم وأرضها البيضاء يكسوها الدماء، هي تنظر وقلبها يتمزق على هؤلاء الأطفال، ولكن تحاول التظاهر بأنها ما زالت

متماسكة حتى لا يحدث أي مواقف أخرى مع عادل تجعلها تذوب بين كلماته وعينيه.

كلف عادل طبيبًا آخرًا بتولي المهمة معها وظل يراقبها من بعيد هي شديدة الذكاء تتعلم بسرعة، رشيقة في خطواتها تخطف الأنظار تحاول التخفيف عن الأطفال وتحمل في غرفهم الريشة والألوان من أجل أن ترسم لهم "بورتريه" حتى يشعروا بالسعادة فهي من وجهة نظر ليلى أولى سبل الشفاء.

ولما يحين الليل تجلس في هدوء تحادثهم وتخبرهم عن المستقبل التي تتمناه وتقنعهم بأنه سيكون بالفعل، تظل حتى يغفو الأطفال تقص عليهم الحكايا وتداعبهم تملأ يومهم فرحًا في ظل هذا الموقف المتأزم.

لكن كيف لها أن تملأ المكان بهجة وأمل هكذا يا لها من حياة على كل فرد أن يبحث عنها كي يقتنص منها الحياة، هو يهمس برفق حتى ارتفع صوته وسمعه أحد زملائه، ماذا بك يا عادل ألاحظ أن حالك متغير بعض الشيء.

ماذا حل بك، لا شيء لا شيء إني فقط أتعجب على حال تلك الفتاة تنظر في عينيها فترى حزنًا يئن وتسمع أصواته الرنانة، ولكنها إذا حلت بين الناس غمرتهم بالحب والسعادة.

فرد صديقه وائل قائلًا : يا الله لم أكن أتخيل أنك ستقع في شباكه هكذا يا عادل.

- شباك ماذا؟

- إنه الحب صديقي لا تنكر.

- الحب؟! أهذا معقول.

- نعم يا عادل لم أرَك تهتم لشأن أنثى هكذا.

ألم ترَ نفسك وأنت تترقبها من بعيد تعتقد بأن أحدًا لن يراك لا والله الكثيرين قد لاحظوا وقوفك المستمر من أجل النظر إليها والتملي من جمالها ههههههه.

- علامَ تستهزئ يا وائل.

- على حالك ألم تجد سواها ألم ترى وجهها، نظر عادل إليه في مقت يا لك من أبله لا تقدر قيمة الأشياء، أنا بالفعل أحبها ولكي يطمئن قلبك لن أرتضي بغيرها زوجة.

- هل هذا حقيقي أم أنك تمزح معي يا عادل، بدأ وائل في توبيخ صديقه بشدة وبطريقة ملفتة جعلت أغلب الأطباء يهرولون خوفًا من أن يكون هناك المزيد من الحوادث.

كان العنبر التي تمرض فيه ليلى قريبًا من مكان الشجار الدائر بينهما فلما سمعت الأصوات مرتفعة بهذه الصورة ولاحظت هرولة الكثيرين ذهبت مسرعة كي تعرف ماذا حدث؟

ولكنها ذهبت على كلمة سمعتها كثيرًا من أناسٍ لا يرون بقلوبهم التي تغمرها الغشاوة السوداء ورافقتهم أرواحٌ خبيثة لا تدرك قيمة البشر، وصلت وعادل يقول لصديقه ألا ترى أنها مشوهة؟ كيف يمكنك أن تتزوجها وتنجب منها؟ أتريد أن يصبح أولادك مثلها؟ إنني لن أوافق على ذلك بحكم العشرة التي تجمعنا منذ أكثر من عشرين عامًا

هي تنصت وهي لا تتحرك وكأنها تنتظر أن تسمع رد عادل على هذا الكلام عنف عادل وائل بشدة لن أسمح بأن تنعت زوجة المستقبل بمثل تلك الكلمات حتى وإن كلفني ذلك مقاطعتك إلى الأبد.

كل هذا من أجل امرأة مشوهة أين جمالها تعنفني هكذا لأجلها، جاءت كلمته تلك كالصاعقة على قلبها فانهمرت في البكاء وتركت كل شيء ورحلت رحلت حتى عن مبادئها التي أتت من أجل أن تحقق جزءًا منها.

ولكنها وجدت أناسًا لا يتخيرون شيئًا عن أولئك الذين قابلتهم في حياتها وكانوا دومًا مصدر حزن وألم، لم يرحموا رقتها وذلك القلب المرهف، عاملوه بقسوة تلك الأحجار التي تنبض بين صدورهم.

هي لا تعلم أين ستذهب ولكنها قررت بأن تشتكي للبحر كان قد مر شهر أو أكثر على ذهابها للمستشفى حتى أنها فضَّلت أن تبيت هناك حتى لا تستغرق المزيد من الوقت في البحث عن سكن.

لكنها كانت قد دفعت لصاحب الشقة في الإسكندرية مبلغًا جيدًا لأنها

أرادت أن تستأجرها لمدة طويلة تختلي فيها بين أحضان ريشتها وتحيا على لحن ألوانها.

رحلت وهي تبكي حاول أن يوقفها ولكنها نظرت إليه قائلة لن تسلم من حديثهم أبدًا، ارحل عني حتى تستقيم حياتك من جديد.

وصلت وقد فرغت من البكاء وبدا عليها الصمت فقط أردات أن تشكتي للبحر ولكنها وجدت الكثير من الناس يلهون ويلعبون حول مياهه، لكنها أرادت أن تختلي به لعل نسيمه يشعرها بالحياة مرة أخرى.

عادت إلى الشقة وارتمت بين أحضان وسادتها وغلبها النعاس حتى بزوغ الفجر استيقظت فبدلت ملابسها ونزلت إلى البحر تترجل حافية القدمين كي تداعب قدماها الشاطئ، تترجل وهي تحاول أن تنسى بكل خطوة كل ما مرت به ليس فقط في تلك الرحلة بل في حياتها بالكامل حتى تتمكن من أن تكمل باقي أيامها في الحياة في صمت حتى وإن اضطرت لأن تعيش بعيدًا عن كل البشر.

ظلت على هذا الحال حتى طلت الشمس بنورها الدافئ تمشي ويديها متشابكة وراء ظهرها تارة وتارة أخرى وهي مفرودة تستقبل نسيم الحياة من لونها الذهبي حتى شعرت بيدٍ تلامس يدها بحنان وقبل أن تتساءل ضمها بيده الأخرى بين أحضانه فابتسمت وأكملا طريقهما معًا.

في وادي الصمت

في صباح غاب نوره بين ضبابٍ كثيف وسماء تبخل عليهم بقطرات تفيض على قلوبهم الطاهرة فتبعث فيها الأمل من جديد، وشمس تبكي وراء الغيوم حزنًا على تلك الأرواح التي أزهقتها قسوة البشر.

وجعلت أصحابها يعيشون بأجساد مفرغة من الحياة أهلكت الحياة أجسادهم فتركوها وسكنوا في وادي الصمت يرتدون ثيابًا بيضاء ناصعة كتلك القلوب التي تنبض بين ضلوعهم.

يتجولون بنظرات متساءلة لماذا لم نأتِ إلى تلك الحياة التي ترفع أرواحنا إلى السماء في صفاءٍ ونشوة، لماذا فُرِضَت تلك الآلام على قلوبنا التي تمزقت من شدتها

ولكن تعود شفاههم إلى ابتسامة تحمل الرضا والسعادة في يقينٍ أنهم فازوا، يتناوبون عليهم حينًا بعد الآخر وهو ينظرون إليهم في صمت كعادتهم لا يحدقون في وجوههم كثيرًا، لا يريدون أن يتذكروا تلك الأحداث التي أودت بأرواحهم إلى الجحيم.

فقط ترتسم تلك البسمة على وجوههم حتى يعود هؤلاء من حيث أتوا

ثم يعودوا إلى عالمهم الذي رغم صمته لكن صرخاته تعلو حتى تهز السماء كأنها برقٌ بنورٍ خافت لا يراه إلا أصحاب القلوب الطاهرة الرحيمة.

ولكن هل سيظلون في ذلك العالم الذي وجدوا فيه سعادتهم أم أن الدنيا ستبقى في وادي الصمت؟!!

قطار الحياة

هرول آدم مسرعًا حينما سمع صوت الضجيج الذي دوى في المكان، بين تلك الخضرة الشاسعة فلما وصل إلى منزله لم يرَ سوى تلك الدموع المنهمرة على وجه أمه بكاء زوجته التي ركعت على الرمال وقد خُلع عنها الحجاب وظلت تحمل بين يديها الرمال وتنهال بها على جسدها.

لا تلفظ الزوجة سوى بكمة واحدة بين كل هؤلاء الناس الذين يحاولون أن يجعلوها تتراجع للخلف، ابني سِبتني ورُحت فين يا ابني دا أنا لسَّا ما عملتش سبوعك.

هو ينظر إليهم في صمت وهو يري أمام عينه ذلك المنزل الذي حمل كل أحلامه من أجل النجاة والحياة من جديد هو يحمل آهته وآلامه وتلك الضحكات التي رنت فيه بين أحبته.

صار حطامًا أكلته النار لم يتبقَ منه سوى الرماد، وذلك الرجل الأبيض يقف كعادته دومًا يترقب ما يحدث في نظرة خبيثة لا تدرك ما تحمله وراءها وعيناه اللامعتان اللتان تنظران بثقة...نعم حققت ما أريد الآن لا يمكنه التراجع أو رفض ما أريد.

ظل آدم مترقبًا بنظرة لا تعبر إلا عن الرضا ونظر بابتسامة إلى والدته

وقبلها وضمها بحنان هي وزوجته ولا تفارق وجهه تلك الابتسامة، رغم تلك الدموع القليلة التي تذرفها عينه وهما بين أحضانه.

ينظر إلى النار وهي تأكل كل شيء، ثم ضمهما بشدة حتى تمنى أن تنكسر ضلوعه ويضمهما في قلبه كي تهدأ تلك النار المشتعلة بداخله.

حتى صار المنزل هو والرمال المحيطة به سواء، رفع يده عنهما وبدأ ينهض من مكانه تركهم وهم ما زالوا يبكون بحرقة وينادون عليه يا آدم، سايبنا ورايح على فين وهو مستمر في الترجل بعيدًا عنهم.

وكأن أذنيه لا تسمع سوى ذلك الصوت الآتي من بعيد، هلم إلينا فهنا تلك الحياة التي تجمعك مع من تحب، ظل هذا الصوت يرن في أذنيه ويرتفع شيئًا فشيئًا حتى خفق قلبه بشدة وبدأت تلك الخطوات الهادئة تتحول إلى هرولة شديدة.

كأنه يريد أن يسابق الرياح، وكلما تردد الصوت تزايد آدم في سرعته، حتى اقترب من تلك القضبان اللامعة حينها توقف الصوت عن النداء، وتردد فقط صوت نحيب أمه وزوجته.

فالتفت خلفه وابتسم وبدأ قلبه يخفق في هدوء وهو يقف يتأمل السماء التي رحلت نجومها اللامعة في الأفق وبدأت الشمس تمحو الخيط الأسود رويدًا رويدًا لتطل السماء بصوت خافت تنظر من خلف السحب مترقبة الموقف.

تنفس آدم الصعداء في هدوء وهو يمشي مرة أخرى في صمت حتى لمست قدماه تلك القضبان التي حولها نور الشمس إلى لآلئ لامعة رفع قدميه عن الأرض وصعد بكامل جسده بين القضيبين ورفع يده وهو يستنشق الهواء بحرية وسعادة.

يهمس هلم إلي حتى أمضي في تلك الحياة التي تنقلني من الشقاء كي أعيش مع من تمزق قلبي لفراقهم، لم تمر إلا ثوانٍ معدودة على همسه حتى سمع ذلك الصوت المميز الذي ينذر بأن الشمس اقترب شروقها من أجل الحياة الحقيقية.

فارتفعت قهقهات آدم وهو ينتظر في سعادة أن يقترب من جسده الذي ينتظره بلهفة أن يحيا من جديد بعد أن صار حيًّا بلا روح، لم تفارق وجهه الابتسامة حتى بلغ نور الشمس ذروته مع ذلك الصوت الذي يقترب مسرعًا،حتى تعالت صيحات السماء بتلك الابتسامة التي استقبله بها وهو يحطم أشلاءه يمينًا ويسارًا وتلك الدماء المتناثرة بلهفة على مرآة قطار الحياة.

همس السماء

صعدت على ذلك السلم المرصع بنورٍ لامع، وأغلقت عيني بهدوء كي أستنشق ذلك النسيم المتطاير، لم أشعر بمرور الوقت حتى وجدت أني قد وصلت فاتكأت على تلك السحابة البيضاء أرى المكان من بعيد وأتأمل.

وجدت كم صار البشر في الأسفل كسنابل قمحٍ تطوف حول الأرض لا يراها ضعاف البصيرة، ولأني لم أرَ ما أردته لم أترك المشهد هكذا.

فانخفضت بسحابتي حتى أرى الصورة بوضوح لا أريد أن أرى تلك الأجساد الفارهة بالكساء الفارغة من الحياة لكنني أردت أن أنصت إلى نبض قلوبهم بوضوح، لكني ظننت بأن سمعي لا يستطيع أن يدرك ذلك النبض ربما لبعد المسافة أو لضعفٍ حل به ولكني كنت مخطئة.

فقد حاولت أن أسترق سمعي لشيء آخر وحينما بدأ صوته بالتسلل إليَّ ببطء وصار واضحًا، ولكن حين بدأت في سماع نبض قلوبهم وجدت شيئًا آخرًا لم أكن أتخيل حدوثه.

تلك القلوب التي انتظرت سماعها طويلًا لم تنبض كثيرًا فقد جاء عليها الوقت وتوقفت دقاتها عن العمل، وظل الأمر يجول في خاطري كيف يعيشون هكذا بتلك القلوب الغير مفعمة بالحياة.

كنت أفعل كل هذا وفي تلك اللحظة التي سيطر عليَّ الاندهاش كانت الشمس تتخفى وراء السحب، تراقبني من بعيد، تنظر إلى حالي ثم تضحك ضحكاتها الماكرة ثم تعود مرة أخرى للاختباء.

ولكنها عندما وجدتني ما زلت على دهشتي التي أثارت في نفسي الحيرة والشك، وجدت أن عليها أن تخبرني بالحقيقة التي يجب على كل من هم مثلي أن يدركوها جيدًا.

فاقتربت رويدًا رويدًا ثم وطأت بيدها العامرة دفئًا وحنانًا على كتفي الذي أرهقه الأمل والأحلام التي تطاير في السماء حتى تصير كنجومٍ لامعة في السماء لا يمكننا أن نلمسها.

فنظرت لها في حزن أرأيت ماذا حل بهم فنظرت إلى الشمس في عجب الآن تعرفين هذا، هلمي إليَّ كي تعلمي الحقيقة كاملة فحملتني الشمس على كتفها وغاصت بنا بين السحاب.

وظلت تقص عليَّ أثناء الرحلة، تلك القلوب التي لم تسمع لها نبضًا بعد أن كانت نابضة، هي ظلت تحيا بالحب لفترات طويلة ولكن حينما غرتها شهوات الدنيا بدأ القلب في التخلي عن حبه وحلمه في التمسك به، حتى صار الأمل في حياتها ضعيفًا، فانخفضت رأسي حزنًا من حديث الشمس فرفعتها مرة أخرى وهي تنظر في عيني، لا، ليس جميعهم، ما زالت هناك قلوب تنبض كقلبك، تحيا بالحب وتشعر بالسعادة في ابتسامة الآخرين.

حينها ابتسمت وأزيل عني ذلك اليأس الذي خيم على قلبي، ونظرت إليها في فخر أود مديحها ولكني وجدت نفسي أكمل معها الحديث، ولكن أيتها الشمس كيف يمكن لقلبي ألا يصير مثلهم؟

فتعالت ضحكات الشمس قائلة كيف لكِ أن تسألي هذا السؤال إن كنت مثلهم لما كنت هنا الآن، تحادثين الشمس.

مقدمة

إلى كل صاحب حق

إياك إياك أن تتنازل وإن تعاظمت أمامك الصعاب دونما حد.. وإن جابهت أهوال الكون، فلا تهتز، أنت مُسخرٌ، مسيّر لإعمار الكون فلا تيأس ولا ترضى بالهوان والضعف... فإما أن تكون أو لا تكون..

هذا قرارك أنت، ما تطمح إليه، فلا بأس إن سعيت لتنجو وينجو كل مَن تُحب...

نورا الزهيري

إهداء

إلى مَن أحب...

أمي وأبي... نبع حنانٍ ينبض بالخير وبدونهما لستُ بشيء...

شكرًا لكما على ما منحتموني إياه بالأمس واليوم وكل يوم.

أحبكما فأنتما لي النبض...

حياةُ كلمة

ما مزق فؤادي قد حدث، استيقظت ذات صباح على ذاك الخبر... (مات ياسين) فهرولت في فزعٍ، لا أدري ما حدث؟

وصلت للمستشفى يُخيل إلي أني أول من عرف لأتفاجأ بجميع أصدقائنا ينتظرون في حزن، رأيتهم يقفون متفرقين بهذا الممر المؤدي لغرفة الموتى بقلوب ممزقة... فَسِرت إليهم بخُطًى حزينة.. مترددة، يعجز لساني عن سؤالهم.. ماذا؟ وكيف قد حدث هذا؟

* * *

خلال الشهر المنصرم كان ياسين يُعد تحقيقًا استقصائيًا عن تغلغل الفساد الإداري في المؤسسات والهيئات الحكومية والخاصة على حد سواء... وقد شغل هذا الموضوع كل وقته وتفكيره.. كان مزاجه سيئًا على الدوام، فكلما انكشف أمامه المزيد من هذا الفساد المستشري في أوصال المجتمع تملكته الهموم والحسرات على ما آلت إليه الأمور في الوطن...

ظل لأيامٍ يُجافيه النوم... يستيقظ فزعًا بمنتصف الليل؛ لا يعرف ماذا ألم به، إنه معتاد على مثل هذه التحقيقات الصحفية، لقد فعلها سابقًا فما باله؟، ما الذي يؤرقه هكذا؟، يكاد يُجن لعدم وجود إجابة شافية...

حاولت زوجته معرفة ما به؟، تحدثت إليه طويلًا محاولة تهدئته وإزالة ما في قلبه من هموم وأرق... ترغب وبشدة في أن تعود ابتسامته.. أن يغدو ضاحكًا... بعدما صار واجمًا، لكن هذا ما كان بيده، يعجز عن الابتسام وإن حاول جاهدًا...

* * *

ذات يوم تلقى (ياسين) اتصالًا هاتفيًّا من رقم مجهول لا يعرف صاحبه.. وما إن أجاب حتى تبادرت إلى مسامعه تلك الكلمات التي أصابته بالهلع:

- سأشكوك إلى ربي، هو حسبي.

ليسقط الهاتف من يده في حينها.. متمتمًا بكلماتٍ تُمزقه:

- ستشكوني إلى ربي، يا الله، مَن صاحبة تلك الشكوى؟، اللهم أغثني...

* * *

وفي الحال عاد لجريدته بعدما تلقى هذه المكالمة على أعتاب منزله..، اجتمع بفريقه... يبحث ويستقصي من جديد بجميع التقارير التي قام بها وأشرف عليها بنفسه... لم يدع مجالًا للشك، لا يمكن أن يكون هناك خطأ قد حدث، لن يقبل بأن يكون مُدانًا، مطلقًا...

كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة بعد منتصف الليل حينما تلقى اتصالًا هاتفيًّا من زوجته تنبئه فيه بمرض ابنتهما المفاجئ، أصابتها حمى شديدة بدرجةٍ أفقدتها الوعي... هكذا أخبرته فهرول في جزع وسط قلق

زملائه وقد هَمّ بعضهم للحاق به ومعرفة ما أصابه غير أنه لم يُبالِ بنداءاتهم...

وصل للمستشفى بقلبٍ مضطربٍ.. هرول هنا وهناك باحثًا عن زوجته إلى أن رآها تجلس وحيدة بهذا الممر المؤدي للعناية المركزة تذرف الدمع وتنتحب، فدنا منها بقلب منفطر... يخشى كلماتها... بما ستخبره، وما إن تلاقت أعينهما حتى أخبرته باكية:

- حياة تحتضر، يجهل الأطباء ما قد أصابها، بذلوا جهدهم.... حاولوا كثيرًا... لكن أياديهم مقيدة.

فغدا مترنحًا بعدما سمع، تعجز ساقاه عن حمله... لكنه تحامل ومضى شاردًا نحو ابنته التي ترقد بغيبوبتها بالعناية المركزة، أخذ يتأملها عبر نافذتها الزجاجية، إنها بحق واهنة بجسمها الضئيل الذي تغطيه الأجهزة الطبية كي تبقيها بيننا، تساءل وعبراته تُسابقه:

- كيف لطفلة لم تُكمل عامها الأول بعد.. أن تحتمل؟

وأمام عجزه وعجزها انهار باكيًا كطفل قد فقد والديه

* * *

مع بزوغ ضوء النهار دخل الطبيب للاطمئنان على حالها.. ليُفاجأ به ممددًا بجوارها ويغط في نوم عميق وكأنما لم ينم منذ شهور قد خلت.. بينما هي تستكين بجواره لا تخشى شيئًا وأباها بجوارها، فما كان منه سوى

تلك الابتسامة الحانية بينما يضع يده على كتفه.. يُحركه، هامسًا إليه بشيء من الألم:

- سيدي، عليك الخروج...، يجب ألا تبقى ها هنا.

ففتح عينيه جزعًا وهب واقفا ليُفاجأ بالطبيب ماثلًا أمامه ويُربت على كتفه مطمئنًا:

- لا تقلق سيدي، ستكون بخير...

فتطلع إليها بقلب مكلوم بينما الطبيب يستطرد قائلًا:

- عليك الخروج.

فعاد ينظر إليه مترددًا... هل يتركها في مُصابها ويبتعد؟ فاستطرد الطبيب موضحًا:

- لا تقلق سيدي...، سنعتني بها جيدًا.

فأومأ برأسه أن أجل . وما إن تجاوز باب العناية حتى سقط أرضًا متألما، تكاد رأسه أن تنفجر لشدة الألم...

كانت زوجته لا تزال جالسة أمام العناية لا تنفك باكية، لكنها ما إن رأته جاثيًا على ركبتيه وينحني للأمام لتلتصق رأسه بالأرض متألمًا.. حتى تناست ما بها وهرولت إليه، وضعت رأسه بين راحتيها محاولة رفعها، كانت تئن لألمه.. عاجزةً عن مداواته وآهاته تعلو في الأفق.. فهرول طبيب ابنته لنجدته وكذا إحدى الممرضات أقبلت مسرعة...

غاب عن الوعي، هذا ما أصابه في اللحظات التالية وسط خوف واضطراب شديدين من زوجته، تخشى فقده...

* * *

فتح (ياسين) عينيه عند الظهيرة ليُفاجأ بنفسه ممددًا على سرير بإحدى غرف المستشفى، كان متيقنًا بعدما رأى تلك الأجهزة الطبية المتصلة بجسمه الذي قد غدا واهنًا لِعّلة به لا يكاد يعلم ما هي...

وما إن هم برفع رأسه حتى تذكر وجهها، همساتها، كلماتها النابية:

- يبدو أن شكوتي قد أُستجيبت، لكني لم أشأ بأن تكون ابنتك مَن يدفع الثمن...

لا يذكر متى التقى بها لتفصح عما بقلبها..!، هل هي حقيقة أم من نسج خياله؟

* * *

لم يستطع البقاء مقيدًا بينما الكثير من الأسئلة والهواجس تراوده، لذا نهض غير عابئٍ بتألمه لتهرول زوجته إليه ما إن رأته ناهضًا، حاولت إثناءه عن الخروج حتى يسترد عافيته فبادرها قائلًا:

- هناك الكثير من الأعمال عليَّ إنهاؤها...

* * *

عاد لجريدته في الحال ليواصل بحثه، استدعى (عُمر، حسام، زياد)... فريقه الذي عمل على إعداد وتحقيق تلك التقارير التي نشر آخرها منذ أيام فقط، وما إن اجتمعوا بمكتبه حتى أغلق الباب من خلفهم وجلس لبرهة صامتًا يعتليه الغضب، حاولوا معرفة ما يقلقه وهمَّ (عُمر) بسؤاله فبادرهم:

- ذاك التقرير بما يحويه... أكان صادقًا بكل حرف كتبتموه أم هناك شيء آخر تخشون الإفصاح عنه بعدما نلتم التقدير الذي تسعون إليه دائمًا؟

فبادره حسام مؤكدًا أنهم تيقنوا من كل شيء، إنهم واثقون بما أنجزوه معًا، فأمعن النظر إليهم.. ظل يردد نظره بينهم بُرهة لعله يستشعر صدقهم...

* * *

في وقت آخر من ذاك النهار... وبينما كان منهمكًا بمراجعة آخر تقرير نشره إذا به يتلقى اتصالًا هاتفيًا من ذات الرقم المجهول ودونما تفكير أجابها قائلًا:

- ماذا تريدين..؟

لتأتي إجابتها كالصاعقة:

- مات أبي، وأنت السبب...

لتغلق هاتفها بعدما تنامى إلى مسامعه صوت بكائها... فهبَّ واقفًا وهرول إلى الأرشيف ليأتي بذلك الملف الذي يحوي أسماء جميع الأشخاص المدانون بقضية الفساد التي عمل عليها مؤخرًا، وما إن غدا بين يديه حتى سقط أرضًا.. يكاد يفقد وعيه فهبَّ موظف الأرشيف لمساعدته كي ينهض فأشار إليه ليبقى مكانه قائلًا:

- أستطيع النهوض بمفردي...

وبشق الأنفس تمكن من الوقوف على قدميه وهذا الملف لا يزال بيده...

* * *

وبخطى ثقيلة وصل لمكتب رئيسه، ليدخل دونما استئذان لخطورة ما وجد، قال بأنفاس مضطربة ودموعه تكاد تنهمر بينما يضع الملف على المكتب أمامه:

- مات أحدهم، وأنا السبب...

فنهض المدير فَزِعًا لقوله بينما انهار ياسين على الكرسي جالسًا، مستسلمًا، ما عاد يُجدي الندم، فدنا المدير منه مستفسرًا:

- قل لي، أخبرني بما حدث؟

فرفع رأسه ناظرًا إليه في حسرةٍ بينما يقص عليه الحقيقة ولا شيء غيرها:

- لقد أخطأنا سيدي...، لم نتحرى الدقة بعملنا، لم نكن صادقين مطلقًا، مات أحدهم و.....؟

- ونحن السبب...

قالها بذات اللحظة التي دخل فيها زملاؤه قلقين لرؤيته منذ لحظات واجمًا...، ليقفوا جميعًا كل منهم في مكان، لا يكادون يُدركون عما يتحدث صديقهم، وقد ترددت نظراتهم بين المدير و(ياسين) الذي غدا مستسلمًا لآلامه، ما عاد يئن مطلقًا، ليجيب المدير بعد صمت ساد بينهم:

- لا تقلق بُنَيَّ، سنتجاوز هذا الأمر، سنتجاوزه بالتأكيد...

- وكيف هذا سيدي...؟

- بالنسيان، الشعب ينسى دائمًا.

فنهض مترنحًا.. لا يكاد يُصدق أُذنيه، أحقًّا ما سمع؟، أيتحدث بهذه السلاسة وقد مات أحدهم!، وكأنه لم يكن..؛ لهذا أعرض عنه غاضبًا وقد تشبث بالملف قائلًا:

- لقد أسأنا لأحدهم، لقد مات قهرًا.. لظلمنا له، ومن ثَم تخبرني أنهم سينسون...، مَن ذا الذي يفعل سيدي...؟، أنتَ أم أبناؤه؟ قل لي مَن قد يفعل؟

فصاح المدير غاضبًا:

- ياسين، هذا يكفي.. لقد تجاوزت الحد كثيرًا، لن أقبل حديثك في هذا الموضوع مجددًا.

- لا سيدي، علينا الاعتذار... لا بُد من تصحيح الخطأ.. وسأفعل هذا حتمًا.

ثم هرول خارجًا غير آبه لنداءاتهم وقد أسرع زياد للحاق به محاولًا تهدئته كي لا ينكشف أمرهم...

* * *

وصل لمكتبه بقلب مضطربٍ وأنفاسٍ لاهثة... ومن ثَم شرع بجمع جميع ملفاته التي عمل عليها في هذا المكان بتفانٍ وتعب ومن بينها هذا التقرير الذي سيغدو نقطة سوداء في طريق كفاحه إن لم يتخذ موقفًا جادًّا بشأنه...

كان يهم بمغادرة المكان حاملًا حقيبته، متشبثًا بها حينما استوقفه زياد موضحًا:

- لا يمكنك فعل هذا بنا...

فخطا ياسين نحوه بقلب مضطرب وقد أدرك حقيقة ما حدث، له يد في هذا، لقد كان الأمر متعمدًا، كي ينهار البناء قبلما يكتمل؛ لذا صاح غاضبًا :

- كنت تعلم، فعلت هذا متعمدًا...

فأجابه متحديًّا:

- لا يمكنك إثبات ذلك...

- بل سأفعل.

ثم مضى واثقًا...

* * *

تلك الليلة لم يعد ياسين للمنزل رغم ما به من ألم.. ولم يذهب للمستشفى للإطمئنان على صغيرته فعليه إنهاء هذا الأمر أولًا.. ووضع الأشياء في نصابها المقدر لها...

ظل طوال الليل يعمل على تفنيده من الأخطاء التي تُغرقه، لن يدع حياته مدعاة للسخرية، لن يدعهم يُهينون زوجته، وحياة.. تأبى الحياة بسببهم...

ساعات طوال انقضت قبلما يتنفس الصعداء باسمًا بإرساله لذلك التقرير لعدد لا بأس به من المجلات والصحف... التي يكنون له التقدير والاحترام دائمًا، رحبوا جميعًا بعمله، مقدرين شجاعته لاعترافه بالخطأ وإن لم يكن متعمدًا من جانبه، أفند كل شيء وأعاد الحقوق لأصحابها...

* * *

ومع بزوغ النهار وارتفاع الشمس في كبد السماء لتنشر ضياءها مُعلنة عن مولد يوم جديد، حياة جديدة تبعث الأمل... وطأ (ياسين) مكتب النائب العام بقدميه حيث أن مكتبه كان يتولى التحقيق في قضية الفساد التي قد

أثارها في تحقيقه الاستقصائي آنفًا...

التقى به رغم انشغاله، تحدثا طويلًا حول ما حدث... واضعًا بين يديه نسخة أخرى صحيحة من التقرير الذي أعده... يُبين له الأمور بما لا يدع مجالًا للشك أو الريبة لأمره.

* * *

عليه القيام بآخر شيء قبل الاستسلام لآلامه التي عادت تطارده.

عاد للمستشفى وفي جعبته الكثير من الآلام والندم فهرولت زوجته إليه ما إن رأته شاحبًا... بل متألمًا، ضمته إليها في حنان.. وذعر لا يستتر فقبلها بين عينيها ودموعه تنهمر ثم انطلق يواصل تقدمه...

كانت الشمس تدنو من المغيب حينما وطأ بقدميه غرفة العناية مجددًا...

رغم اعتراض الأطباء... ها هو قد فعل وزوجته من خلفه تتبعه وفي قلبها شيءٌ ترفض تجاهله...

الغدُ قريبٌ منها ولا شيء سيمنعه... لكن هيهات، هيهات فالطبيب قد شرع بإغلاق الأجهزة الطبية وفصلها الواحدة تلو الأخرى عن جسمها الضئيل لتُعلن الوفاة في حينها فما كان بإمكانه البقاء صامتًا وهرول نحوه غاضبًا... يدفعه عن صغيرته إلى أن أغلق الباب بوجهه ليبقيه خارجًا ثم سرعان ما عاد إليها.. يحملها بين يديه ويضمها إلى صدره في كَمد وزوجته

بجواره تذرف الدمع لمصابهما...

حاولت مواساته فما كان يستمع، ابتعد عنها ولا يزال متشبثًا بصغيرته، يضمها بقوة وقد غدا باكيًا... يُقبلها، يهمس بأذنها وكأنها تُنصت لكل حرف ينبع من داخله...

* * *

بهذه الأثناء أخذ بعض الأطباء والممرضون يترقبون ما يحدث من خلف النافذة الزجاجية بينما ذاك الطبيب يحاول فتح الباب الذي قد أُوصد بإحكام خلفه...

رأى ما لم يَرَه الآخرون، رأى (ياسين) متألمًا رغم بقائه شامخًا فهَب لنجدته...

وبشق الأنفس تمكن من فتح الباب ليهرول إليه صارخًا:

- أرجوك لا تفعل...

لكن الأوان قد فات ولا سبيل لإيقافه، رآه يهوي على الأرض دون حراك ولا يزال يضم صغيرته إلى صدره رغم فقدان وعيه.. وكأنما يخشى فراقها وإن كان عنها راحلًا...

قالت الكاميرا

(مريم) فتاة فلسطينية بسيطة كغيرها من الفتيات، اختارت الصحافة مهنة لها في الحياة.. وسيلة للدفاع عن المقدسات، الحقوق والحريات...

كانت دائمًا بمفردها، ليس لغرور بها كما ادعى البعض في ذات الأيام، بل لعدم رغبتها في التسبب بأذى لأيّ كان.. فمهنتها خطيرة، باتت محظورة بفعل العدوان، الأزمات والنكبات؛ لكن وبرغم كل الصعب كانت ترافقها لكل مكان...

كانت دومًا تقول:

- انتظر لترى ما سجلته الكاميرا...

ثم تبدأ بالبكاء...

* * *

ذلك اليوم كان الأمر مختلفًا... فبينما كانت تنشد نشيدها الوطني فيما تسير راجلةً للخروج من قريتها على حدود القطاع في إباء.. وبزوغ شمس يوم جديد لاح في الآفاق إذا بها تلمح جيب عسكري يقترب بسرعة جنونية ليتوقف غير بعيد عن مدخل قريتها الغارقة في الثُبات.. فهرولت إلى إحدى البنايات القريبة لتختبئ، لتترقب التالي من الأحداث...

لم تنقضِ غير لحظات حتى ترجل أربعة من الجنود الصهاينة يلفهم السواد، مدججين بالسلاح والدروع لحمايتهم من الهجمات ثم بدأوا يجرون شابًّا فلسطينيًّا من الصندوق الخلفي للجيب العسكري بينما كان يسبهم ويلعنهم، يتوعدهم بالعقاب، ليختفوا جميعًا خلف الجيب الذي بات يُعيق رؤيتها من موضعها هذا بطبيعة الحال...

* * *

صمتٌ رهيبٌ لف المكان وباتت (مريم) تشعر بالقلق على ذاك الشاب، تساؤلات عدة وهواجس مخيفة تدفقت لعقلها في آنٍ واحد.. عجزت عن احتمالها والبقاء صامتة بينما الخطر يُنذر بالاقتراب...

تناولت كاميرتها.. لتبدأ بتسجيل الأحداث، وما إن تقدمت خطوة في عزمٍ وثبات حتى بدأ الصراخ يعلو في الآفاق وطلقات رشاشاتهم قد انطلقت تصم الآذان...

عجزت عن استيعاب ما يجري وانخفضت في الحال كرد فعل عادي في مثل هذه الأجواء..؛ لكنها وبرغم هذا الصخب استجمعت قواها لتنهض من جديد وأسرعت تعدو نحو الشاب غير آبهة بكون الجنود ما زالوا بالمكان، رفعتها عاليًا حتى عينيها.. بدأت تُصوب كاميرتها نحوهم.. فما كانت تفكر بأحد سواه...

* * *

وما إن غدا آخر مبنى خلفها ليستقبلها الفضاء من كل اتجاه حتى عم الصمت المكان لتتعالى صيحات الجنود وضحكاتهم تقترب باقترابهم معلنة عن نجاح مهمتهم وأنه قد حان الانسحاب...

رأت الجنود يُقبلون نحوها ولا شيء يفصلهم عنها غير ذاك الجيب العسكري الذي قد غدا في المنتصف كنقطة ارتكاز ولا تملك بين راحتيها سوى هذا السلاح الذي يعتبر كل ثروتها، كنزها في الحياة...

ظنت أنها النهاية فوقفت في ثبات، تُحدق بهم، تُصوب كاميرتها لوجوههم الملثمة.. لا تخشى أحد منهم على الإطلاق فلم ينتبهوا لوجودها وانطلق الجيب بهم كالبرق فيما أخذت تعدو نحو الشاب، تدعو الله أن يكون من الأحياء لكن هيهات، هيهات...

* * *

بهذه الأثناء بدأ الأهالي يخرجون من منازلهم بعدما أيقظهم صوت الرصاص.. يتساءلون ما الذي يجري؟، داعين الله ألا يكون أحدهم قد أصابه مكروه ما...

وقفت (مريم) باكية، تردد في ثبات:

- لا إله إلا الله.

ثم واصلت توثيقها للأحداث، بتسجيل ما ستبقى شاهدة عليه حتى الممات...

كان الشاب ممددًا أمامها، غارقًا بدمائه من كل اتجاه...

وصل الأهالي وكان (جاسر) أول مَن رآها واقفة هناك تحجب ما تراه هي عن عينيه، عرف مَن تكون فكاميرتها هي العنوان.. فناداها:

- مريم...، ما الذي يجري ها هنا؟...

فوضعت كاميرتها جانبًا واستدارت إليه بعينين تذرفان الدمع.. حزنًا على ما كان فشعر أن الأمر جِد خطير وهرول إليها بقلب يزداد في الخفقان كلما غدا قريبًا للحد الذي رآه فيه بأم عينيه...

عندها، وقف ساكنًا.. وكأن على رأسه الطير لبشاعة ما رأى من البغي والعدوان...

دنا منه ودموعه تسابقه، قبَّل جبهته آسفًا على ما كان، لا يُصدق أنهم قد فعلوا به ما يراه الآن، لا يُصدق أنهم ذبحوه بتلك البشاعة، معلنين عن مدي بغضهم للإسلام...

كان القطع ممتدًا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار مُنذرًا بفصل رأسه عن جسده، لا يصدق أنهم جردوه من قميصه وأفرغوا ما في جُعبتهم من ذخيرة في جسمه النحيل...

وصل الأهالي بتلك اللحظة التي حمله فيها بين يديه ليُزف نحو الجنان، ليصابوا جميعًا بنوبات بكاءٍ من هول ما كان...

جُرم بشع في وضح النهار دون خوف أو خذلان...

شهيدنا اليوم ما كان أحد يعرفه، كل ما هم على يقين منه أنه من بني الإسلام، أحد أبطالهم...

ما كانوا ليرتكبون تلك البشاعة بحقه إلا لأنه كان مدافعًا يومًا ما.. وقد أرهقهم البحث عنه شهورًا وأعوامًا...

زُف الشهيد غير أن (مريم) ما كانت حاضرة يوم الوداع، كان عليها فعل شيءٌ آخر، رأت الوجوه، رأت ما فعلوه ولديها الدليل.. فهل ستتمكن من التحقيق..؟، هل ستعيد ما أخذوه..؟، ما سلبوه... تلك البسمة، هل حقًّا ستعود؟...

ث خبركم

هنا، في هذا المكان.. قانا، بيروت، لبنان، كان منزلنا هنا بجوارمسجدنا، أردنا أن يحمينا الله من غدر الإنسان، أردنا أن نشعر بالأمن في زمن الأحزان، أردنا أن نحيا بسلام في زمن الحروب.. حرب شعارها "الدماء ثم الدماء ثم الدماء".

مات أطفالي أسفل أنقاض منزلنا في زمن الغدر من بني الإنسان...

عندما أخرجوا ابني الأكبر محمد، لم أعرفه.. أخبروني أنه هو فصرخت:

- لا، ليس محمد.

وبعد لحظات لملمت جروحي وعُدت أجيبهم:

- بلى، إنه هو

وضعوه على الأرض أمامي ثم ها هم يهرولون من جديد نحو الرُكام، آملين بإيجاد صغاري، مَن بَقِيَ منهم من الأحياء، فاقتربت منه وقلبي يزداد في الخفقان.. تلمست يديه الصغيرتين براحتين ترتجفان.. مسحتُ على وجهه البريء.. أُزيل الغبار عن طفولته المسلوبة.. أبت عيناي أن تبكى قالت:

- لا، ليس الآن...

* * *

عادوا من جديد... أخبروني أنهم عثروا على طفلين آخرين فذهبت معهم رغم أني لا أريد.. شعرت بخوف شديد، شعرت بهما.. سمعت صوتهما يأتي من بعيد.. كانا يضحكان، رأيتهم يُخرجون (علي) من أسفل الرُكام، كان يُمسك بيد شقيقته (جهاد) كأنه يُريد طمأنتها أنه بجوارها ولن يُصيبها مكروه بعد الآن، حاولوا إبعاد يده عنها فأبى.. أَبى أن يتركها حتى بعد الممات فاقتربتُ أُقبِّله والدموع تنهمر من عينيَّ، شكرته لاعتنائه بها.. بصغيرتي التي لن أضمها إلى صدري بعد الآن...

لم تمضِ غير ثوانٍ وسمعت أحدهم يصرخ.. يُنادى في انفعال:

- إنها فتاةٌ أخرى، أسرعوا...

فاندفع الرجال نحوه داعين الله أن تكون من الأحياء...

بدؤوا يُزيلون الصخور، استغرقوا الكثير قبلما يكشفوا الغبار عن وجهها ثم ما لبثوا أن وجدوا طفلين آخرين أسفلها.. كانا (بسمة، إسلام) طفلاي التوأم، لعلها كانت تحملهما، تهدهدهما لإثنائهما عن البكاء وقت العدوان...

* * *

ترددت كثيرًا، تملكني الاضطراب مما قد أجده هناك لكنني هرولت إليهم ما إن سمعت أحدهم يقول:

- إنها على قيد الحياة...

رأيت شابًا في مُقتبل العمر يحمل طفليَّ بين يديه وينظر إليَّ في أسى، يُريد

إخباري.. بموتهما، لكن كيف؟.. ولماذا؟، بأي حق...

رأيتهم يضعون حياة على الأرض قبلما يُهرولون، يصرخون يطلبون العون فدنوت منها بقلب يرتجف ينزف حزنًا مما رأيت...

كان وجهها مُغطى بالدماء، لم أتبين عينيها الصغيرتين...

ظلت طفلتي تصرخ دونما توقف.. تبكى أشقاءها وقد رحلوا.. شَعرت بهم، فضممتُها إلى صدري أُحاول تهدئتها رغم البكاء...

* * *

كان نهرًا من دماء...

هذه حياةٌ أخرى ترحل عنا، وضعوا أطفالي أمامي على التراب، هذا (محمد) 10سنوات.. وتلك (حياة) 8 سنوات، وذاك (علي) 6 سنوات.. وتلك (جهاد) 4 سنوات.. أما طفلاي الصغيران فـ (شهر واحد)...

مات أطفالي.....

لا، بل هم شهداء....

أخبروني أنهم قصفوا موقعًا لمنظمة إرهابية فتساءلت:

- أين..؟، هنا..!، في منزلي.. منزل كل ما يحويه هم الأطفال، أجعلوا أطفالي مجرمين ليهربوا بفعلتهم، كيف..؟، أي عقل يقبل هذا؟، أخبروني أي عقل؟!...

فعادوا يقولون:

- لقد حدث خطأ..

فصرخت غاضبة:

- لا، الحرب ليس بها أخطاء.. ليس بهذه الحرب، بل أبيتم.. أبيتم أن يكون أطفالي مسلمين، أبيتم أن يُصبحوا أقوياء...

* * *

جلست على التراب أمامهم، أُناديهم:

- محمد، أبى علي أن يترك الجهاد حتى بعد الممات، محمد.. رأيت البسمة تموت في عيون الحياة وقد ظنوا أنهم قضوا على الإسلام..؛ لكن هيهات، هيهات وأطفالي رمز الفداء لكل إنسان.

لن أصمت، سأخبركم.. سأخبر كل إنسان مهما كان، سأخبرهم كيف ذبحوا أطفالي وهم نيام.

ليس وطني

كلٌ مِنَّا يملك سلاحًا..؛ لكن أنُدرك أننا نملكه، أننا قادرون على حمله...

هذا شيءٌ مُناط بنا، بعقولنا، بقدرتنا، بإرادتنا للدفاع عن حقنا، هذا شيء يقبله كثيرون بينما يرفضه آخرون.. ربما لأنهم ما عادوا يُدركون أين الحقيقة؟.. وأي درب يسلكون؟...

باتوا مشتتين بين هذا وذاك، بين الصدق والكذب، بين الصواب والخطأ، بين الحقيقة والخداع...

* * *

هكذا صارت حياتنا في العراق بعد سنوات الموت، بعد سنوات تحول فيها الأخضر اليانع إلى آخر سُلبت منه الحياة، ما عُدنا ندري أيٌّ منهم عدونا؟... أبناء شعبنا أم ذاك المحتل الذي اغتصب أرضنا وهتك عرض بناتنا وأمهاتنا وأطفالنا...، ما عُدنا ندري أنُصدقهم أم نتبع ذاك الإحساس الذي تُحدثنا به سائر أعضائنا...

* * *

في لحظة من الخوف استسلم كثيرون، ما عادوا يقدرون.. والموت في كل لحظة، صار في كل بقعة...

كان يتملكني الخوف كلما علمتُ برحيل أحدهم... ولم أُدرك أن هذا سيحدث لي ذات يوم، فها هو أبي يُقبل مسرعا بعد منتصف الليل بقليل بينما جميعنا يغط في نومٍ عميق... يصرخ فينا، يحثنا على النهوض فحاولت أن أسأله... أردت معرفة ما يجرى؟، فما أجابني...

خطوت إليه.. رجوته أن يهدأ بعدما صار اضطرابه يُفزعني، أمسكت بيديه وضممتهما إلى صدري كي يهدأ فما أمهلني... ضمني إليه في خوف والدمع ينهال من عينيه هامسًا بأذني:

- أفعل هذا لأجلكم...

فدب الخوف في قلبي...

* * *

صعدت وأشقائي إلى السيارة دونما ندري أين يأخذنا والدانا بهذا الوقت؟!...

خلال الطريق سألته مرارًا وتكرارًا فما أجابني.. اكتفى بالتطلع إليَّ وإخوتي في حسرةٍ والكثير من الندم...

لم أُدرك أننا أيضًا ذاهبون، عن الديار راحلون إلا حينما ترجلنا، وقفتُ مصدومًا بينما يُفتشنا الجنود، كانت الحدود السورية أمامنا هكذا قالت اللافتة التي في المواجهة...

* * *

عبر إخوتي وأمي فيما ظللت ساكنًا، كاد أبى أن يرحل حينما تنبه أني ما زلت واقفًا، نادى عليَّ... حثني على العبور فتطلعت إليه في صمت، عاجزًا عن تصديق ما نحن فيه اليوم... وما إن تيقن أني سأبقى ها هنا أسرع عائدًا، حاول إقناعي، أخذ بيدي قائلًا:

- سنحيا بأمان، أعدك بُنَيّ

فتطلعت إليه مشدوها يلفني الصمت وما إن بدأ يجذبني حتى صرخت:

- ليس وطننا...

- سيغدو كذلك...

فنزعت يدي من قبضته لكنه سرعان ما عاد وضمني... هامسًا إليَّ في خوف:

- لا بُنَيّ، أرجوك لا تفعل...

فوقفت معتدلًا وعدت خطوة للخلف لأجيب باكيًا:

- لا يا أبى، وُلدت هنا وأريد أن أموت هنا، في وطني...

ثم عُدت خطوةً أو خطوتين وصوتي، عقلي، قلبي.. ما زالوا يُخبروه:

- لا يا أبى، لا يمكننا الرحيل.. يجب أن نبقى ها هنا، لن نتركهم يعبثون بها...

* * *

وقف أبي مشدوها من إجابتي، لا يكاد يرفع عينيه عني بينما ابتعد... لم

يكد يشعر بإخوتي وهم يهرولون من حوله عائدين للوطن وشروق شمس يوم جديد تُداعب ضحكاتهم...

حينها.. عادت أمي ولسان حالها يُخبره:

- إنه محق، لا يُمكننا الرحيل في صمت...

نصرى ومجدى

ذهبتُ بآمال النصر وكُلي حنين للمجد.....

هؤلاء كانوا رفاقي للعمل بالعراق وقت الحرب، ذهبنا لنقل ما يحدث، نضعه أمام أعين الجميع دون خوف ليروا كم نحن في دمار وكم ساد الظلام...

هناك.. وبتلك اللحظة بالذات وقفنا عاجزين، نظرنا في ذهول وكل شيء يزول، بكينا في ذُعر...

تساءلنا في ذل:

- لِمَ ينتصرون؟!...

لا يملكون الحق.. ليس لديهم مجد وهم أصحاب الغدر...

* * *

ولأيام لم تجد تساؤلاتنا مَن يُجيبها أو يُصرح بحقيقة ما وقع ها هنا.. على هذه الأرض...

من صميم قلوبنا.. بعزيمتنا، بإرادتُنا، بأنفسنا.. قررنا في صمت، سنكشف ما تحاولون إخفاءه دون خوف...

صبيحة اليوم التالي طرق بابُنا النصر، قال بشيء من الفخر:

- هيا، سنبدأ من اليوم...

فترددت، لا أعرف ما أصابني بحق...

* * *

كانت (حنين) على وشك الخروج من غرفتنا خلف آمال ما إن انتهت أني لم أُحرك ساكنًا.. فما زلت على وضعيتي التي كنت عليها قبل مجيء نصر...

كنت لا أزال جالسة على ذاك الكُرسيّ بزاوية غرفتنا ممسكةً بكاميرتي..أُحدق بها ويكأني أرغب وبشدة في اختراقها لأصبح جزءًا ضئيلًا من مكوناتها المجردة من الإحساس كي لا أنزف دمًا على ما صِرنا عليه في بلادنا اليوم...

هادئةً، صامتةً، ساكنةً لأقصى حدٍّ فدنت مِنيّ باسمةً لتقول بعدما أمعنت النظر بعينيَّ:

- هيا، مما تخافين؟...

فنظرت إليها في جزعٍ لا أدرى بما أُجيبها، ظهرت حينها أكثر حيرة عن ذي قبل فأخذت بيدي تحثني، تدفعني للخروج قائلة:

- هيا حبيبتي، لا تخافي... فلن يُصيبنا مكروه اليوم...

* * *

ذهبنا نصور ونسجل ما سنشهد عليه يوم الحق المعلوم، ذهبنا في خفاء مذعورين...

قتل الرجال والشيوخ، ذبح الأطفال والنساء، تهجير كل مَن بقيَ حيًّا...

أوهمونا أنهم ما جاءوا إلا لإعمار الأرض، تحقيق الحُلم فما كان سوى الدمار والموت...

عُدنا لفندقنا، صِرت عاجزة عن كل شيء إلا التفكير فيما رأيت، سرت في جنونٍ صارخة:

- ماذا فعلنا لِنُجَابِه الموت.. وبأي ذنب يُقتل القوم؟

فلم يُجيبوني واكتفوا بالصمت، صمتٌ رهيبٌ يبعثُ على الموت...

- أين هم؟.. ولِمَ هذا الصمت؟...

هكذا تساءلت، ظنًّا مني أنهم سيجيبوني كي يهدأ القلب فما وجدت سوى أعينهم تلوذ بالفرار بعيدًا عني كي لا يُرى الدمع ينهال في حسرةٍ على ما آلت إليه حياتنا اليوم...

حينها فقط أيقنت أننا وإن صرخنا ملء الكون لم ولن يُبدل القول...

* * *

في اليوم التالي جاءني، قائلًا:

- هيا سترحلين.

فهالني ما قد سمعت:

- ماذا؟!.. ولِمَ؟.

فلم يُجِبني وغادر مسرعًا فلحقت به أسأله:

- لماذا؟، أخبرني.. ماذا فعلت؟.

لم أكن أتوقع أن يكون جوابه صادمًا بهذا القدر.. فما إن أنهيت سؤالي حتى توقف واستدار مسرعًا ليواجهني بما رآني عليه:

- أتخشين الموت؟، ألهذا تتذمرين.. وتبكين طوال الوقت؟.

فعدتُ للخلف مضطربة، ألهذا الحد كنتُ ضعيفة بالأمس؟، أبهذا القدر يراني غير قادرة على المضي قدمًا فيما جئنا لأجله رغم كل الصعب...

بِتُ عاجزة عن احتمال تلك الهواجس والحقائق التي لمحتها في نظراته إليَّ لذا أسرعت عائدة لكاميرتي.. أمسكت بها وبكيت فجاءت (حنين) تسألني:

- ما الأمر؟.

فأجبتها باكية:

- لا أريد الرحيل.

فاحتوتني بذراعيها قائلة:

- ومَن قال أنكِ ستفعلين؟.

* * *

لم تمضِ غير دقائق معدودة حتى عاد من جديد ليُخبرنا:

- سأذهب ومجد فقط...

فسرت إليه مترددة، حائرة، خائفة بما سيُجيبني لكنني حسمت أمري وأعلنتها في حزم:

- أما زلت غاضبًا مني؟.

فنظر للخلف حيث (مجد) يُنادي عليه ثم عاد ينظر لي ليُفاجأ بدموعي تنهال على وجنتي دون قيد...

ليبقى ساكنًا، صامتًا،عاجزًا عن البوح بمكنون قلبه وعقله ما إن رآني بهذا البؤس، حقيقة لا أدري كيف رآني...

انتظرته كي يُجيبني فما وجدت غير الإعراض عني والذهاب دونما ينطق بحرف فحدقت به غاضبة لتجاهله إياي، بل كِدتُ أُبغض كل شيء...

مترين أو ثلاث، ربما كانت هذه هي المسافة الفاصلةُ بيننا حينما صاح بي دون أن ينظر إليَّ:

- توقفي عن البكاء لتتمكني من السير.

فأجبته فرحة بعدما أيقنت أني سأبقى:

- صدقني، لن أسقط بعد اليوم.

* * *

سررتُ كثيرًا، جففت دموعي، تناولت حقيبتي، كاميرتي.. ثم هرولتُ مسرعةً..؛ لألحق بهما قبل أن يرحلا، لن أدعهما يفعلان ذلك دوننا فيما (حنين، آمال) تحاولان مجاراتي بأنفاس مضطربة، لاهثة...

ذهبنا جميعًا، فمنذ أن وطأت أقدامنا أرض العراق لم نفترق قط، ذهبنا نُسجل وحشية المحتل وهم يتنقلون من منزل إلى آخر يقتلون ويسرقون قبل

رحيلهم في جنح الليل، رأيناهم يذبحون الطفولة في فخر، سمعناهم يضحكون فيما يقتلون نساءنا وشيوخنا دونما ذرة خوف...

كنا لا نزال نتبعهم حينما وقع الانفجار بذاك المنزل الذي دخلوه للتو، رأيناهم يترنحون في ذُعر، يفرون قبل أن ينالهم الموت، بدأوا يُطلقون رصاصاتهم الغادرة في الأرجاء، يتخبطون ويتعثرون فزعين، يصرخون، يطلبون العون...

علمنا فيما بعد أن بذاك المنزل سقط منهم كثيرون، أنهم فروا وقد تركوا جرحاهم ينزفون ربما حتى الموت...

* * *

في يوم لاحق ذهب (مجد) لمقابلة أحد المسؤولين بالجيش العراقي السابق للتحري عن شيء ما حدث بالأمس، ذهب حاملًا كاميرتي فكاميرته تحطمت منذ أسبوع ونيف ولم يخبرنا مَن فعل هذا أو كيف؟...

كان هذا أول افتراق بيننا وشعرنا جميعًا بأن اليوم لن يمر بخير..

انقضت ساعات الليل ولم يعد بعد فذهبنا نبحث عنه مع بزوغ فجر يوم جديد.. يتملكنا الخوف، التقينا أحدهم.. أخبرنا أن هذا حدث بالأمس عند غروب الشمس...

- أرغمه الجنود على الخروج من تلك السيارة، هناك، مشيرًا نحوها بيدٍ مرتعشةٍ فنظرنا جميعًا وما وجدنا غير حُطام يصرخ من هول ما رآه وعاشه

صديقنا (مجد)... عادت أعيننا تتعلق به لعله يُخبرنا بشيء ما يحمل في طياته الخير فاستطرد قائلًا:

- أرادوا سلب ما معه فرفض، حاولوا رُغمًا عنه فدفعهم.. أراد الفِرار منهم فلم يمنحوه فرصة، أسقطوه أرضًا وانهالوا عليه ضربًا بنعالهم.. وما زالوا يفعلون حتى صمت...

عندها لاحظنا أنه ما عاد يحتمل، رأيناه يرتجف في خوف فأسرعت بسؤاله:

- هل أنت بخير سيدي؟.

- لكن..؛ بعد قليل عاد أحدهم، دنا منه وابتسم قبلما يُمسك سكينه و.....؟

فوضعت يداي على أذني كي لا أُنصت لكلماته، وهرولت نحو الحُطام في جزعٍ..؛ لأجثو على رُكبتيَّ باكية ودماء مجد بيدي...

هذا لن يردعنا، علينا إكمال عملنا، لن نقف بمنتصف الطريق، يجب أن يعلوا صوتنا.. ولأنه علا وعلا كان الوعيد لنا...

* * *

كنا نؤدي عملنا وما إن علمنا حتى أسرعنا عائدين، قصفوا فندقنا لينهار فوق الرؤوس ليموت كثيرون، أدركنا أنها البداية لكننا لن نعود، ما زال الطريق أمامنا وعلينا الصمود...

ظهيرة يوم حزين ما زلت أذكره.. كان ما حدث، فبينما نحن جالسون نتحدث ونتذكر (مجد) علمنا بُجرمهم، أن جيش المحتل قام يُدمر ويُخرب في قرية مُجاورة.. بزعم فناء الإرهاب ومحوه من ذاكرتهم فأسرعنا نحمل أغراضنا، أدواتنا، كاميراتنا.. لنسجل هذا كي يبقى شاهدًا...

وفي الطريق لاحظنا أن إحدى طائراتهم تلحق بنا...

بدايةً ظننا أن هذا شيءٌ عادي وأنهم سيرحلون عند التعريف بهوياتنا؛ لذا التقط (نصر) مُكبر الصوت وصاح قائلًا:

- نحن صحفيون، هيا ارحلوا...

فما أنصتوا، كانوا وما زالوا مستمرين في مُلاحقتنا... حاول (نصر) تجاهل الخوف الذي رآه في عيوننا وواصل القيادة صامتًا، كنا بين الفينة والأخرى نسمع طلقات رشاشاتهم تتهاوى فوق رؤوسنا، أدركنا أنهم يُريدون إرهابنا للعودة عن مسارنا فواصلنا غير مُبالين وقد نزعنا الخوف من قلوبنا...

- لا يمكنهم فعل هذا بنا...

صدحت بها حناجرنا وعقولنا إلى أن أيقظتنا (حنين) من غفلتنا صارخة:

- إنهم يُصوبون نحونا...

فأسرعنا للخروج وقد تناولت إحدى كاميراتنا على عجل... لم نتمكن من الهروب والانفجار أصابنا، قذفنا بعيدًا.. ارتطمنا بالأرض بقوة...

* * *

لقوة القذف أُصِبنَا بالصمم، ما عدنا نسمع الضوضاء التي تحيط بنا.. فرفعت رأسي متألمة لنزيفها وإذا بي أبُصر سيارتنا وقد تحولت شعلة من نار.. وتناثرت محتوياتها في محيطنا... و(نصر) يُهرول عائدًا...

على الرغم من ساقيه النازفتين لم يُعِرهما أي اهتمام.. وكأنما لا يشعر بالألم، حاملًا الناجية الوحيدة من كاميراتنا فعلمت ما يريد وهرولت عائدة فيما أُنادي (حنين، آمال):

- ابتعدا عن هذا المكان...

أمسكتُ بهاتفي وفي لحظات خاطفة كان الفيديو جاهزًا للعمل.. وما إن فعلت حتى أُصبتُ بالهلع...

كان عليّ توجيهها إلى المحتل كما فعل (نصر)..؛ لكنني وجهتها إليه، لذاك الوجه الذي يتطلع إلى الأعلى بشوق...

أخطأت، هكذا ظننت في بادئ الأمر ولم أدرِ أن هذا كان مُقدرًا، لأُسجل تلك اللحظات المؤلمة، تلك القذيفة وهى تخترق (نصر) لتمزقه؛ ليتناثرفي الأرجاء كقطرات المطر، ليلحق بكثيرين ممن أرادوا الحياة لهذا الوطن...

أردنا الحقيقة فكان استهدافنا ونحن نؤدي عملنا، فعلوا هذا دون خجل وأمام أعين البشر...

بعد اليوم

لم يمضِ على خطبتها سوى أيام حتى انتهى كل شيء...

أعني (خلود) شقيقتي الصغرى، كان هذا بعد يومين أو ثلاث من خطبتها لذاك الشاب...

جاء لزيارتنا وفي ثنايا حديثه قال:

- أُريدك أن تنزعي الحجاب...

فانعقد لسان أبي بينما نهضت شقيقتي لتخبره بالجواب:

- أُخرج، لا أريد رؤيتك بعد الآن...

وفتحت أمامه الأبواب...

* * *

انتهى الأمر بـ(خلود) عند هذا الحد، تمكنت من نسيان ما كان.. لا أعرف كيف!، عادت لتواصل تفوقها في العلم.. وبتحدثها للعديد من اللغات اكتسبت المزيد من الثقافات...

امتلكت موهبة فذة بالإقناع، يُمكنها إقناع أيًّا كان بما تريد إلا أبي، كان الأقدر على إقناعها بما يشاء...

كانا متشابهين أما أنا فكنت أكتفي كما أمي وشقيقتي (جهاد) بالاستماع لحديثهما الذي لا يخلو من الألغاز...

ذات يوم عادت من جامعتها تبكي، حاولنا معرفة ما بها؟، فأبت أن تحكي، تركناها ريثما تهدأ لعلها تُخبرنا.. غير أن هذا ما كان بالإمكان فها هي الأيام تمضي دونما يتبدل الحال، بل عجزت عن العودة لجامعتها ومواصلة الحياة... أردنا مساعدتها فوقف أبي معارضًا:

- لا...

* * *

لم أعِ ما يبغيه من هذا الجفاء إلا حينما رأيتها ذات صباحٍ تخرج من غرفتها.. من عُزلتها لمواجهة التحديات، أدركت شقيقتي أن البكاء لن يُجدي، لن يُفيد بأي حال...

وبمرور الأيام تمت خطبتي للشاب الذي ملك قلبي وعقلي في آن ورغم هذا لم أشعر بالفرح، لم أعرف ما الأمر؟، ربما لرفضها مقابلة من سيغدو زوجي ذات يوم...

حاولت أن أعلم؟، رجوتُها أن تُخبرني فما كان منها سوى الصمت فقلت في ذاتي.. لعلها تخشى شيئًا ما...

أجل، كانت شقيقتي تخشى أن يُعاد الأمر، أن يتحطم كل شيء.. ويتمزق القلب...

* * *

كان الحُلم.. وأحب الأيام إلى قلبي بات اليوم...

ذهبت للـ(كوافير) لأتزين كما الفتيات، لأبدو بأبهى حُلَّة هذا المساء، لكن ما أقلقني أن (خلود) لم تأتِ إلا وحلول الليل.. وقد أوشك كل شيء...، أذكر هذا جيدًا...

كُنت على وشك الخروج من الباب عندما دخلت ورأتني دون الحجاب..؛ لتصيح بي غاضبة:

- أين تذهبين بهذا الحال؟!

فتلعثمت كلماتي بين شفتي ولم أعرف ما الجواب...

كان هذا أول لقاء بينها وبين (حسام)، الذي قال ساخرًا:

- أهذه هي..؟

فلم تنتبه لسؤاله.. أو لوجوده من الأساس واقتربت تُمسك بيدي، تُجلسني.. ريثما تُزيني بالحجاب فصاح بها غاضبًا:

- توقفي في الحال...

فلم تُعِره أي اهتمام ليفور غضبًا لتجاهلها إياه؛ ليدفعها عني صارخًا:

- ألا تُنصتين، هيا اخرجي، لا أود رؤيتك بهذا المكان...

* * *

كادت شقيقتي أن تسقط لولا أنها أمسكت بالباب.. فنهضتُ فزعة لرؤيتها بهذا الحال... وما كِدت أخطو إليها خطواتٍ حتى أمسك بيدي ليُرغمني على البقاء فنظرت إليه راجية:

- سأغدو أفضل بالحجاب...

فعاد صارخًا:

- إما أنا أو ذاك...

مشيرًا بيده لحجابي المُلقى على الأرض بعدما كان قد نزعه عني بذات اللحظة التي دفع فيها شقيقتي نحو الباب...

لم أقوَ على الجواب كما فعلت شقيقتي يومًا ما.. وبشيء من الحياء نظرت إليها قائلة:

- سأنزعه فقط لساعات...

فَنَظرت إليه في بُغضٍ وهي تراني عاجزة عن البوح بـ.. لا.

لم تُصدق شقيقتي أني قلت تلك الكلمات، ظلت تترقبني بعينين تذرفان.. وما إن هممنا بالخروج حتى صاحت في ثبات:

- لا، لا تفعلي يا شروق،

وأسرعت تتشبث بالباب.. فَهَّم (حسام) ليصفعها لولا أني وقفت بينهما راجية إياها أن تبتعد في الحال...

* * *

عجزت شقيقتي عن الاحتمال سقطت فاقدة للوعي فهويت أمامها في ذُعر، ضممتها إلى صدري صارخة:

- لا.. خلود، لا تفعلي بي هكذا، أجيبيني... هيا، افتحي عينيك...

فما كان سوى صمتها جوابًا لي..

بكيتُ كثيرًا وصرخت بينما كان هو ساكنًا كالصخر:

- لا تقف هكذا، هيا ساعدني...

فلم يُبالِ وأعرض بوجهه بعيدًا عني كي لا يرى مدى قبحه في عينيَّ...

* * *

على أي حال تمكنت من نقل شقيقتي للمستشفى... ذهبت واضعة حجابي ولن أنزعه بعد اليوم، غير أني لم أشعر بالفرح.. فهذا لن يُعيد (خلود) إلينا، فما تزال غائبة عن الوعي.. ولا أدري متى تفيق؟.. وهل ستنظر إليَّ؟...

وصل الجميع في ساعة متأخرة ما إن علموا بالأمر، كانوا يجهلون ما حدث حتى أخبرتهم بكل شيء فقامت أمي لتصفعني غير أن (جهاد) حالت بينها وبيني.. قائلة:

- لا يا أمي، خلود لن ترضى بهذا الحال...

تمكنت من تهدئتها فيما آثرتُ الابتعاد... ذهبت لأبي، كان بجوارها، ينتظرها ربما تصحو وتبتسم له مثلما كانت على الدوام...

قررت الاعتذار، رغبت بفعل ذلك غير أني ما إن حاولت حتى تملكتني الحسرات ولُذت بالفرار... فيما ظل هو يُحدثها مثلما كانا يفعلان.. ربما لساعاتٍ، وكأنها تُنصت إليه بكل ما قال...

* * *

مع انقضاء ساعات الليل أخبرنا الأطباء بكل شيء، أُصيبت شقيقتي بجلطة في المخ ولا يدرون متى ستفيق بعد.. فانتظرنا، أردنا أن نكون بجوارها عندما يحين الوقت، غير أن الأيام مضت دونما جديد في الأمر، ما زالت لا تعي شيئًا...

* * *

وذات صباح جاء (حسام) معتذرًا فقلت:

- لا، يُمكنني الاختيار...

حاول مجددًا فأعرضت بوجهي غاضبة:

- أود الانفصال.

فغادر آسفًا دونما أُحرك ساكنًا بعدما صِرتُ قادرة على الاختيار...

عاد والدايَّ للبيت فيما بقيت و(جهاد) ننتظر متى ستصحو بسمتنا لتضيء لنا الكون...

تلك الليلة، كُنت أُجالسها بمفردي عندما سمعت صوتها العذب.. رغم ثقل الكلمات:

- أفـ..ضـ...ل بالحـ..جـ...اب.

تفاجأت بها تنظر إلي فيما تُجاهد لتتمكن من الابتسام فأسرعت أُقبّلها معتذرة عما كان، أخبرتها:

- أمكنني الاختيار...

ربما يتبدل الحال، فحدثتني بشق الأنفس:

- أيـ..ـن....؟

- لا تُجهدي نفسك، سيأتي في الحال...

ثم هرولت مسرعة لأخبره بما كان...

عادت (خلود) لتُنير لنا الحياة، عادت بعدما صِرت قادرة على الإفصاح بـ" لا "...

رحيل أم

انفصل والداي عندما كنت في الثالثة من عُمري، قالوا أن الأطفال في مثل عُمري لا يُدركون شيئًا..؛ لكنني أدركت، نشبت بينهما الخلافات واستحالت معها الحياة...

انتقلت للعيش وأمي في بيت جدتي وانتهى الأمر.. هكذا ظننت..؛ لكن سرعان ما تبدل الحال نقيض ما أردت فبعد أيام أعادتني لأبي وعندها بكيت، ناديتها في ذُعر:

- لا أمي، أريد الذهاب معكِ...

فلم تهتم ولم تنظر إليَّ فصرختُ من جديد:

- أمي، لا تتركيني اليوم.

فآثرت الصمت ومضت دون خوف، حاولت اللحاق بها غير أن أبي عانقني في شوقٍ وحملني عن الأرض بينما يُخبرني بصوت حزين:

- لا بأس حبيبتي، ستعتادين على الأمر...

فأجبته بصوت مضطرب يختلله بكائي الذي صم الآذان اليوم:

- لكني لم أفعل شيئًا...

* * *

انقضت الأيام، الشهور.. وما زلت باكية، أريد أمي وحسب...

ظل أبي حائرًا، صامتًا، لا يعرف كيف يُداوي جرحي الذي لم يندمل بعد؟، ظل يترقبني بقلب مكلوم.. ولسان حاله يتساءل.. هل ستعي الأمر؟...

ودونما مقدماتٍ جاء وأخبرني بحقيقة مُرةٍ لم أعِها بتلك اللحظة بالذات، فما إن انتهى حتى تساءلت:

- متى ستعود وتأخذني؟...

فضمني إليه بقلب مكلوم تُمزقه الأحزان.. لا يعرف بما يُجيبني الآن...

تحامل على نفسه وقال بصوت متردد:

- ستفعل ذات يوم...

فتطلعت إليه بعينين تغرقهما الدموع لعلي أستشعر في حديثه شيئًا من الصدق...

* * *

انقضى العام تلو العام ولم ترغب أمي بي بعد.. فزواجها قد مَحَى الكثير من الآمال...

كنت عائدة من مدرستي ذات يوم وحيدة عندما رأيتها تحمل صغيرًا لها وتصعد لإحدى البنايات التي أمامي فهرولتُ ألحق بها في لهفةٍ وشوق، أبغي معانقتها، تقبيل كفَّيها وإن كان هذا آخر عهدي بالحياة...

اندفعت خلفها وقبلما تُغلق باب منزلها ناديتُ في فرح:

- انتظري...

فظلت تترقبني بينما اقترب باسمة.. لتُبادرني ما إن صِرت أمام عينيها بكلمات أصابتني بالذعر:

- مَن أنتِ؟!

- ألا تعرفينني؟...

فأومأت برأسها أن لا...، فبادرتها في فرح:

- أنا رغد يا أمي.

فأغلقت بابها في وجهي وقد امتعض وجهها لمعرفة مَن أنا بحق...

* * *

كِدتُ أسقط أرضًا لفعلها هذا الذي لم ولن أعيه قط...

رغم آلامي التي مزقت الفؤاد وكلماتها الجافة بعد طول غياب تحاملت على ذاتي وابتسمت رغم هذا وذاك، استجمعت قواي لأغادر المكان وما إن هممت بالرحيل حتى سمعتُ صوتها من خلف الباب مُحذرة إياي أن أعود إلى هنا، قالت في ثبات ودونما خوف مما هو آت:

- لا تعودي، إياكِ أن تفعلي هذا قط...

عُدت للبيت حزينة فلاحظ أبي تغير حالي وجاء يسألني:

- ما الأمر؟

فلم أقوَ على التحدث وكذلك الصمت... بكيتُ بين يديه في حُرقة فهذا

جُل ما استطعت، فوضع رأسي بين راحتيه كي يواسيني بكلماته، يُخفف عنيّ شيئًا من الحزن..؛ لكن سرعان ما تبدل الحال.. ليتملكه الذعر ما إن انتبه لارتفاع حرارتي لهذا الحد...

ولأيام فقدت الوعي، فقدت الإحساس بمَن حولي لشدة الأمر...

بقيَّ أبي بجانبي لأيامٍ يُداويني، يُخفف عني هذا الجُرح.. وبرغم أني لم أبُح بشيء إلا أنه قد أدرك الأمر...

استعدت عافيتي شيئًا فشيئًا، أكملت حياتي، دراستي، أحلامي، أهدافي.. وكأن شيئًا لم يكن بالأمس هكذا أعلنت.. كي يطمئن فؤاده ويقتنع أني بخير...

وإن بلغتُ الخامسةَ والعشرون من عمري فما زلت أبكي إلى الفجر، ما زلت بحاجةٍ إليها رغم كل الصعب...

إلى أُمٍ تُعلمني، تُوجهني إذا ما أخطأت، إلى أُمٍ تُواسيني.. تُداوى الجرح إذا ما تألمت، ليتني أراكِ يا أمي ولو للحظةٍ بالعمر...

* * *

سمعت نداء ربي " حيَّ على الصلاة " فنهضت لصلاة الفجر، توضأت.. ولصلاتي أديت، ليلفني الفرح ويهدأ قلبي عن ذي قبل ثم أويت لفراشي بنفس راضية على ما منحني الله إياه إلى اليوم...

استيقظت عند الثامنة صباحًا فهرولت فزعة فلا يُمكنني التأخر على

عملي لهذا الوقت...

كنت ألهث بينما أُعد الفطور لأبي قبل ذهابي لعملي فجاء باسمًا ليُخبرني:

- تمهلي يا بُنيتي، فما زال أمامنا الكثير من الوقت فتطلعت إليه قائلة:

- إنها الثامنة والربع.. ولم أذهب لعملي بعد...

فرَبت على كتفي قبلما يخبرني:

- لن تفعلي اليوم...

فلم أفهم ما يُلمح إليه ولهذا تساءلت:

- ولِمَ؟...

- ستعلمين، لكن عندما يحين الوقت...

ثم أمعن النظر بساعة يده بُرهة قبلما يستطرد القول:

- فما زالت ساعتان أمامنا من الآن، هيا سأساعدك بإعداد الفطور...

فتركت كل شيء وجلست على كُرسيَّ الخشبي بزاوية مطبخنا... حائرة من أمري بينما شرع أبي بإعداد الطعام دون أن ينتظرني...

* * *

انتهيت من تناول فطوري على عجلٍ ثم دخلت غرفتي لأراجع بعض الأوراق الخاصة بعملي وتلك التساؤلات ما تزال تُراودني...

- ما الأمر أبي؟!، ماذا تُخفي عَني؟...

خرجتُ من غرفتي ولم أنه شيئًا مما بدأت، ذهبت إليه لعلي أجد جوابًا على تساؤلاتٍ باتت تؤرقني... وما

إن صِرت أمامه حتى جلست بجواره على أريكته المفضلة بينما يتابع إحدى مباريات كرة القدم لناديه المفضل...

حل الصمت محل أسئلتي وبِتُّ أتابع المباراة معه، نسيتُ ما جاء بي إلى هنا ومكثت في سَكينةٍ، شعرت بدفء شديد يَلِفُّني وطمأنينة تغمر قلبي...

* * *

- حان الوقت

هكذا قال.. فجرس الباب بات يُدَق.. ثم نهض في سرور وفرح، مضى نحوه بينما أتتبعه بنظراتي الحائرة... لم يبقَ طويلًا فها هو قد عاد بعد بُرهة ليُخبرني:

- حبيبتي، هناك مَن يود رؤيتك... فنظرتُ إليه في حيرةٍ ثم ما لبثت أن...؛ الآن فقط علمت بما كان يُخفيه عَني...

رأيتها تُقبل نحوي في خجلٍ، باكيةً على ما كان بالأمس وإخوتي من خلفها يترقبون في قلق فنهضت في ذهولٍ، لا أُصدق ما أراه بأُم عيني!...

لم أُحرك ساكنًا، عجزت عن تفسير أمري... وما إن تعانقنا حتى انفجرتُ باكية لا أعرف كيف!، فأجلستني وكلانا يذرف الدمع...

* * *

بدأت مُعتذرةً فقبلتُ يديها:

- لا يا أمي، لا تعتذري.. لا يحق لي أن ألومك عن الأمس.

فانفجر الجميع باكيًا لقولي فيما عُدت أعانقها، ما عاد لي رغبة بشيء آخر بهذا الكون غير رضاها وبقائي بجانبها ما بقي لي من العمر...

أغمضتُ عَينيّ راضية وبسمتي تُرافقني، تعلو وَجنتي...

أرهقها الوضع كثيرًا، فبقائي ساكنة بهذا القدر دونما أرفع رأسي عن كتفها الذي بات يؤلمها بحق قد دفعها لتهمس بأذني في رفق:

- رغد حبيبتي، ما الأمر؟، انظري إليَّ.. هيا فإني إليكِ في شوق.

ولصمتي الذي طال اقترب أبي، خطًّا نحوي في خوف، دنا مِني.. همس إلي وقد ظن أني غفوت:

- حبيبتي، استيقظي.. هيا لا تُرهقي والدتك بهذا القدر...

فلم أفعل ولن أفعل بعد اليوم، لسكوني، لصمتي، لابتسامتي تلك.. شعر والداي بحقيقة ما آل إليه أمري..؛ ليبكي أبي كما لم يبكِ من قبل، لتحتويني أمي بذراعيها باكية لا تبغي مفارقتي، لا، ليس بعد اليوم...

سوى الموت

قال لي أحدهم ذات يوم أن مصر غنية بالثروات، إن عقول أبنائها أعظم الثروات...

كان هذا بإحدى الحفلات الخيرية لأطفال الشوارع، جُمعت تبرعات كثيرة لأجلهم للارتقاء بهم وتعليمهم، للقضاء على هذا الخطر الذي يُهددنا...

في ذلك اليوم تواجد الكثيرون منهم وللوهلة الأولى لم أُصدق أنهم كانوا بالشارع يومًا ما، ما رأيته بعيني دفعني للبدء بذلك التحقيق عنهم...

* * *

بدأت بالذهاب لكل مكان ينظر إليه الجميع باشمئزاز، حيث يتواجدون.. هم خائفون، لكني وفى كل مرة أراهم يُهرولون، يبتعدون...

وبعدما أرهقتني المحاولة تلو المحاولة ذهبت لإحدى المؤسسات الخيرية المعنية بهم، أردتُ أن أرى كيف يتعاملون معهم؟، كيف يقضون يومهم؟، أردتُ أن أعيش بعالمهم ولو للحظةٍ.؛ لأرى كيف يُفكرون؟.. تحدثتُ للكثيرين منهم، وجدتهم بغاية الذكاء، كانوا يُلقون الدُعابات غير أني تعجبت لأمرهم.. فهم لا يضحكون؛ لذا كان سؤالي واضحًا فما أجابوني، ظلوا يحدقون بي في صمتٍ.. وجدتهم هادئين وكأنما ينتظرون، يترقبون ما سيكون...

قضيت معهم ساعات وساعات أُراقبهم، أُحدق بوجوههم الصغيرة التي نال منها الوهن...

وما إن حان الفراق حتى شعرت بحزنٍ شديد، وددت لو أبقى معهم للأبد..؛ لكن كان عليَّ الرحيل لمساعدتهم...

* * *

عُدت في اليوم التالي وأنا سعيد فلسوف أراهم من جديد، ظننت أنهم مثلي سيسعدون لرؤيتي فما كان من أحد، رحلوا جميعًا ولم يُخبروني عن السبب؟...

عدتُ إلى جريدتي يُمزقني الألم، أردتهم أن يعودوا لنتحدث من جديد، عن أحلامهم...

مرت أيام وربما شهور نسيت فيها كل شيء، هكذا ظننت إلى أن جاء ذلك اليوم الذي رأيت فيه أحدهم بينما أعبر الشارع وصديق لي، بدا في غاية الوهن فناديته، حاولت التحدث إليه لكنه ما إن رآني حتى هرول في فزعٍ، حاولت اللحاق به فلم أستطع، اختفى في ثوانٍ وكأنه لم يكن...

ما حدث أعادني من جديد، يجب أن نجد السبيل لا أن نبقى صامتين...

عُدت وكلي إصرار على إيجادهم فما استطعت بداية، إنهم بارعون.. تجدهم يُحيطون بك وفي لحظة يرحلون لكن هذا لم ينل من عزيمتي...

* * *

ذات ليلة خرجت أبحث عنهم حتى رأيت أحدهم فأخذت أتبعه بحذر شديد كي لا يشعر بي...

فى الطريق شعرت بخوف شديد، لا أُصدق أنه يسلك تلك الدروب الموحشة، رأيته يتوقف ليدخل مستودعًا للقطارات البالية فتبعته لا أعلم أين سيصل بى؟...

عندما اقتربنا شعرت برغبة شديدة في الخروج، شعرت بشيء مخيف يدفعني للرحيل فقاومت...

أردت رؤية هذا.. التواجد بذاك العالم الذي يتجاهله الجميع، خطوات معدودة ثم رأيته يدخل لإحدى عربات القطار الذي عبرنا أسفله منذ قليل، جلس إلى آخرين في مثل عمره أو أصغر بقليل، أخذوا يتناولون بعض فُتات الخبز... فاقتربت قائلًا:

- يُمكنني إحضار الطعام للجميع...

فنظروا إليّ وهم يصرخون ثم هرولوا.. شعرت بذعر شديد...

* * *

خرج الأطفال من كل مكان حولي يفرون فحاولت أن أُوقفهم، أن أُطمئنهم فما كان صوتي يصلهم، ما كانوا يُنصتون...

لحظات وانتهى كل شيء، اختفوا جميعًا في ثوب الظلام، أخذت أنظر حولي، أهرول هنا وهناك لعلي أجدهم...

بعد لحظات من البقاء وحدي خائفًا جاء يسألني:

- ماذا تريد؟...

فاستدرت فزعًا لا أعلم من أين أتى؟، ظللت أُحدق به وكأني رأيته من قبل، وكأني رأيت عينيه المليئتين بالحزن ذات يوم، وقبل أن أُجيب استطرد قائلًا:

- ارحل سيدي فلن تجد سوى الموت...

فدنوت أسأله:

- لِمَ تقول هكذا؟...

فلم يُجِبني وهم بالرحيل فأمسكت بيده متسائلًا:

- ألا تريد المجيء معي؟.

فنزع يده من قبضتي ليجيبني غاضبًا:

- لِمَ؟.. لنقتل من جديد؟ لا، هذا يكفى... نحن سعيدون بهذه الحياة.

فصُعقت لقوله وتذكرته.. إنه هو، ذاك الطفل الذي أَبى مُحادثتي أو حتى النظر إليَّ ذلك اليوم...

* * *

عندما أدرك أنى تذكرته قال لي:

- رجوتهم ليدعونا نبقى، أخبرتهم أننا سنعمل خلال الليل، سنبقى مستيقظين لكنهم أبوا، أرغمونا على الرحيل، دفعونا للموت...

فحاولت أن أُهدئه بعدما رأيته يرتجف لشدة الخوف فعاد يُخبرني:

- ارحل سيدي فأنت لا تعلم شيئًا، لا تعلم كم مات منا ذلك اليوم، كم طفلة اُغتصبت، كم مِنَّا صار مجرمًا ليحيا من جديد...

رق قلبي لِحاله وحالهم، اقتربت منه كي أواسيه بمصابه الأليم فذهب مُسرعًا دون أن يمنحني فرصة فيما يصيح بي:

- ارحل سيدي، ولا تعد إلى هنا بعد اليوم...

* * *

لم أُنصت لكلماته وَعُدت من جديد، جئت أُخبرهم بأشياء سيسعد لها الجميع.. وباقترابي لاحظت شيئًا لم أعهدهم عليه من قبل، وجدتهم يلتفون حولي.. يسيرون معي دون خوف...

بحثتُ عنه بينهم ولم أكن أعلم بما أدعوه، نسيت أن أسأله مَن يكون؟...

عندما أدركت أنه ليس بينهم سألت مترددًا، لا أعرف ما ألم بي:

- أين هو؟

فلم يُجِبني أحد وجدتهم صامتين فعُدت أسألهم ربما يفعلون.. فأجابتني طفلة لم تتجاوز الثالثة بعد:

- مات...

فدنوت أسألها.. ماذا تقول؟، وقد ظننت أني لم أسمعها...

أدركت كلماتها ووعيتها ما إن رأيتهم يبتعدون...

بقيت وحدي من جديد، تذكرت حديثه إليّ، كلماته التي تُبكي القلوب، آلام صارخة لم أتخيل أنها ستنبع يومًا من طفل لم يتجاوز الثامنة بعد، ما زلتُ أذكر صورته وهو يقول:

- ارحل سيدي فلن تجد سوى الموت...

الفهرس

سارة محمد عبدالفضيل

مقدمة..4

إهداء..5

رياح أكلتها النيران..6

جنة الأحلام..10

جزيرة لا تنام..13

عرين الأفاعي..21

ملحمة الكبرياء..35

على شاطئ المتوسط..42

في وادي الصمت..57

قطار الحياة...59

همس السماء...62

نورا الزهيري

مقدمة.. 65

إهداء 66

حياة كلمة.. 67

قالت الكاميرا 79

سأخبركم 84

ليس وطني.. 88

نصري ومجدي 92

بعد اليوم...101

رحيل أم..108

سوى الموت...115